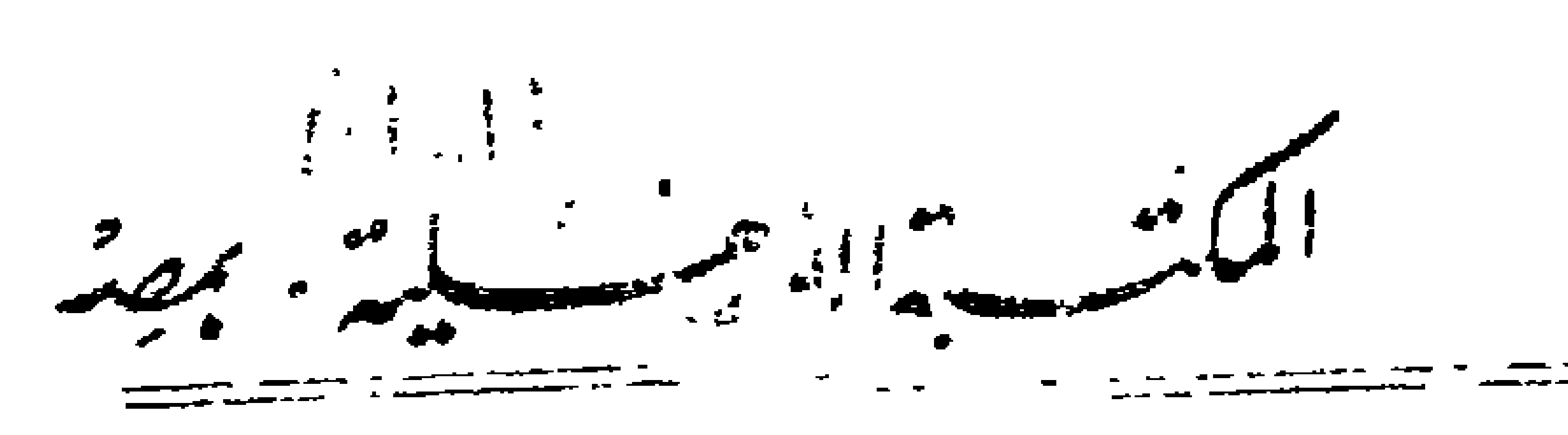




عادات العرب في جاهليتهم

مختصر

من كتاب (بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب)

لفقيد العراق

السيد محمود شكرى الالوسى

رحمه الله

١٣٤٢ هـ — ١٩٢٤ م

المطبعة الرحمانية — بمصر

لا تؤجل

ولا تتأخر عن طلب (بيان) قائمة كتب — المكتبة الأهلية —

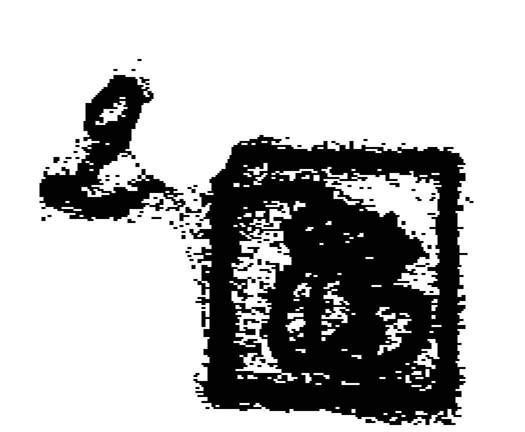
لأن لك فيه كل الفائدة

اطلبه حالاً — فهو يرسل (مجاناً) لكل راغب



فهرس

صفحة



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العلى الشان ، العظيم السلطان - صرف الدهور بقدرته والأكوان ، وأبهرت حكمته العقول والأذهان ، يخلق ما يشاء كما يشاء من غير تعريف ولا بيان ، والصلاة والسلام على رسوله محمد الذى استخلصه من أفضل المعادن منبتاً وأعز الأرومات مغرساً فكان سيد ولد عدنان وقحطان ، وهو النبي الأمى ، العربى الهاشمى ، الذى أنقذنا بنور وجوده من ظلمات جهل الجاهلين الى ذروة الفضل والعرفان ، وعلى آله وأصحابه هداة كل حيران ، المفصحين عن الحق المبين بأفصح لسان وأعذب بيان ، والمتفحصين عن أحوال الأمم الغابرين ليزدادوا ايماناً على ايمان ، وعلى من تبعهم باحسان ، ما تعاقب الملوان ، وكر الجديدان

(أما بعد) فلا يخفى على من عرف أحوال الأمم ، ووقف على ما كان عليه أجيال بنى آدم ، ان أمة العرب على اختلافها ، وتفاوت أصولها وأصنافها ، كانت ممتازة على غيرها من الناس ، متقدمة فى الفضائل والمآثر على سائر الأنواع والأجناس ، فان الله تعالى قد شرفها برسوله ، وفضلها بتنزيله ، وخصها بالخطاب المعجز ، واللفظ البليغ الموجز ، والسؤال الشافى ، والجواب

الكافى . فالعرب أمراء الكلام ، ومعادن العلوم والأحكام ، وهم ليوث الحرب ، وغيوث الكرب والرفد فى الجدب ، وهم أهل الشيمة والحياء ، والكرم والوفاء ، والمروءة والسخاء ، أحكمتهم التجارب ، وأدبتهم الحكمة فقضوا منها المآرب ، ذلت ألسنتهم بالوعد وانبسطت أيديهم بالانجاز ، فأحسنوا المقال ، وشفعوه بحسن الفعال ، ولبسوا من المجد ثوباً سندسى الطراز ، يغسلون من العار وجوهاً مسوده ، ويفتحون من الرأى أبواباً منسده ، كأن الفهم منهم ذا أذنين ، والجواب ذا لسانين ، يضربون هامات الأبطال ، ويعرفون حقوق الرجال ، الى أن تلاعبت بهم أيدى الأقدار ، وتفرقوا فى أقصى الأنحاء والأقطار ، ولما كانت الرغبة شديدة لوجود كتاب مختصر يجمع شتات أحوالهم ، ومتفرق أخبارهم ، رأينا أن نأتى بهذه الصفحات القليلة المختصرة من كتاب علامة العراق السيد محمود شكرى الألوسى (تغمده الله برحمته) المسمى بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ، على نتف من أخبارهم ويسرنا أن نزف اليوم الى قراء العربية كافة بشرى عزمنا على اعادة طبع هذا الكتاب المستطاب بأجزائه الثلاثة الكبرى ، بعد أن عنى بشرحه وتصحيحه وضبط كلماته اللغوية الأستاذ محمد بهجة الأثرى الأديب العراقي المعروف ، وسيزين حسن التأليف جمال الطبع ، وجودة الورق ، وبهاء الترتيب والله نسأل أن يوفقنا الى ذلك انه أكرم مسؤول

العرب

تعريفهم وأنواعهم وأقسامهم

العرب جيل من الناس لم يزالوا موسومين بين الأمم بالبيان في الكلام والفصاحة في المنطق والذلاقة في اللسان ولذلك سموا بهذا الاسم فانه مشتق من الابانة ، لقولهم : أعرب الرجل عما في ضميره اذا أبان عنه ، ومنه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : الثيب تعرب عن نفسها ، والبيان سمتهم بين الأمم وستمر بك قصة كسرى لما طلب من خليفته على العرب النعمان بن المنذر أن يوفد عليه من كبرائهم وخطبائهم من رضى لذلك فاختار منهم وفداً أوفده عليه وكان من خبره واستغراب ما جاؤا به من البيان ما هو معروف

وهم أمة قديمة فقد كانوا بعد الطوفان وعصر نوح عليه السلام في عاد الأولى وثمود والعمالقة وطسم وجديس واميم وجرهم وحضرموت ومن ينتمى اليهم من العرب العاربة من أبناء سام بن نوح ، ثم لما انقرضت تلك العصور وذهب أولئك الأمم وأبادهم الله تعالى بما شاء من قدرته وصار هذا الجيل في آخرين ممن قرب من نسبهم من حمير وكهلان وأعقابهم من التبابعة ومن يهم من العرب المستعربة من أبناء عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن

سام ، ثم لما تطاولت تلك العصور وتعاقبت وكان بنو شالخ بن عابر اعالم من بين ولده واختص الله تعالى بالنبوة منهم ابراهيم بن تارخ وهو ازر بن ناحور بن ساروخ بن ارغو بن فالغ وكان من شأنه مع نمروذ ما قصه القرآن ثم كان من هجرته الى الحجاز ما هو مذكور وتخلف ابنه اسمعيل مع أمه هاجر بالحجر قرباناً لله تعالى ومرت بها رفقة من جرهم في تلك المفازة نخالطوها ونشأ اسمعيل بينهم وربى فى أحيائهم وتعلم لغتهم العربية بعد أن كان أبوه أعجمياً ، ثم كان بناء البيت كما قصه القرآن ثم بعثه الله تعالى الى جرهم والعمالقة الدين كانوا بالحجاز فآمن كثير منهم واتبعوه ثم عظم نسله وكثر وصار بالجيل أخر من ربيعة ومضر ومن اليهم من اياد وعك وشعوب نزار وعدنان وسائر ولد اسمعيل وهم العرب التابعة للعرب ثم انقرض أولئك الشعوب فى أحقاب طويلة وانقرض ما كان لهم من الدولة فى الاسلام وخالطوا العجم بما كان لهم من التغلب عليهم ففسدت لغة أعقابهم فى آماد متطاولة وبقى خلفهم أحياء بادين فى القفار والرمال والخلاء من الأرض تارة والعمران تارة وقبائل المشرق والمغرب والحجاز واليمن وبلاد الصعيد والنوبة والحبشة وبلاد الشام والعراق والبحرين وبلاد فارس والسند وكرمان وخراسان أمم لا يأخذها الحصر والضبط قد كاثروا أمم الأرض

وقد حصر ابن خلدون فى كتاب العبر أجيال العرب من مبدأ

الخليقة الى عهده فى أربع طبقات متعاقبة وذكر ما كان فى كل طبقة منها من عصور وأجيال ودول وأحياء وبدأ أولاً بذكر

الطبقة الاولى

وهم العرب العاربة وذكر أنسابهم ومواطنهم وما كان لهم من الملك والدولة وسمى أهل هذا الجيل العرب العاربة اما بمعنى الراسخة فى العروبية كما يقال ليل اليل وصوم صائم أو بمعنى الفاعلة للعروبية والمبتدعة لها بما كانت أول أجيالها وقد تسمى البائدة أيضاً بمعنى الهالكة لأنه لم يبق على وجه الأرض أحد من نسلهم ، ثم :

الطبقة الثانية

وهم العرب المستعربة من بنى حمير بن سبا وذكر أنسابهم وما كان لهم من الملك والدولة باليمن فى التبابعة وأعقابهم وانما سمى أهل هذه الطبقة بهذا الاسم لأن السمات والشعائر العربية لما انتقلت اليهم ممن قبلهم اعتبرت فيها الصيرورة بمعنى انهم صاروا الى حال لم يكن عليها أهل نسبهم وهى اللغة العربية التى تكلموا بها فهو من استفعل بمعنى الصيرورة من قولهم استنوق الجمل واستحجر الطين وأهل الطبقة الأولى لما كانوا أقدم الأمم فيما يعلم جيلا كانت اللغة العربية لهم بالاصالة وقيل العاربة ، ثم ذكر :

الطبقة الثالثة

وهم العرب التابعة للعرب من قضاعة وقحطان وعدنان وشعبيها العظيمين ربيعة ومضر وبدأ بقضاعة وأنسابهم وما كان لهم من الملك البدوى فى آل النعمان بالحيرة والعراق ومن زاحمهم فيها من ملوك كندة بن حجر آكل المرار ثم ما كان لهم أيضاً من الملك البدوى بالشام فى بنى جفنة بالبلقاء والاوس والخزرج بالمدينة النبوية ثم عدنان وأنسابهم وما كان لهم من الملك بمكة فى قريش ثم ما شرفهم الله تعالى به وجيل الآدميين أجمع من النبوة وذكر الهجرة والسيرة النبوية ، وغير ذلك ووجه تسمية هذا الجيل بذلك الاسم ظاهر ، ثم ذكر :

الطبقة الرابعة

وهم العرب المستعجمة ومن له ملك بدوى بالمغرب والمشرق وسموا بذلك لاستعجام لغتهم على اللسان المضرى الذى نزل به القرآن وهو لسان سلفهم وقد أطنب رحمه الله تعالى الكلام فى ذكر هذه الطبقات الاربع حيث كانت موضوع كتابه ومدار بحثه وهذا الكتاب مما تداوله الأيدى فلا حاجة فى اتعاب القلم بنقل ما ذكره .

تعريف من يطلق عليه لفظ العرب

ان لفظ العرب فى الاصل اسم لقوم جمعوا عدة أوصاف أحدها ان لسانهم كان اللغة العربية ، الثاني انهم كانوا من أولاد العرب ، الثالث ان مساكنهم كانت أرض العرب وهى جزيرة العرب التى هى من بحر القلزم الى بحر البصرة ومن أقصى حجر باليمن الى أوائل الشام بحيث كانت تدخل اليمن فى دارهم ولا تدخل فيها الشام وفى هذه الارض كانت العرب حين المبعث وقبله فلما جاء الاسلام وفتحت الأمصار سكنوا سائر البلاد ومن أقصى المشرق الى أقصى المغرب والى سواحل الشام وأرمينية وهذه كانت مساكن فارس والروم والبربر وغيرهم ثم انقسمت هذه البلاد قسمين منها ما غلب على أهله لسان العرب حتى لا تعرف عامتهم غيره أو يعرفونه وغيره مع ما دخل فى لسان العرب من اللحن وهذه غالب مساكن الشام وعراق ومصر والاندلس ونحو ذلك وأرض فارس وخراسان كانت هكذا قديماً ومنها ما العجمية كثيرة فيهم وغالبة عليهم كبلاد الترك وخراسان وأرمينية وآذربيجان ونحو ذلك فهذه البقاع انقسمت الى ما هو عربى ابتداء والى ما هو عربى انتقالا والى ما هو عجمى .

وكذلك الانساب ثلاثة أقسام قوم من نسل العرب وهم باقون على العربية لساناً وداراً أو لساناً لا داراً أو داراً لا لساناً ، وقوم

من نسل العرب بل من نسل بنى هاشم ، ثم صارت العربية لسانهم ودارهم أو أحدهما وقوم مجهولوا الاصل لا يدرون أمن نسل العرب هم أم من نسل العجم وهم أكثر الناس اليوم سواء كانوا عرب الدار واللسان أو فى أحدهما وكذلك انقسموا فى اللسان ثلاثة أقسام : قوم يتكلمون بالعربية لفظاً ونغمة ، وقوم يتكلمون لفظاً لا نغمة وهم المتعربون الذين لم يتعلموا اللغة ابتداء من العرب وانما اعتادوا غيرها ثم تعلموها كغالب أهل العلم ممن تعلم العربية ، وقوم لا يتكلمون بها الا قليلا وهذان القسمان منهم من تغلب عليه العربية ومنهم من تغلب عليه العجمة ومنهم من قد تتكافآن فى حقه لأمران إما قدرة وإما عادة

الفرق بين العرب والاعراب فى المعنى

ذهب بعض أهل اللغة الى الترادف بين اللفظين وانهما بمعنى واحد ، قال الجوهري فى كتاب الصحاح : العرب جيل من الناس وهم أهل الأمصار والنسبة الى العرب عربى والى الاعراب اعرابى والذى عليه العرف العام اطلاق لفظ العرب على الجميع ، ومثل ذلك فى القاموس وغيره من كتب اللغة المعتبرة ، وذكر أبو العباس أحمد بن عبد الله الشهير بابن أبى غدة فى كتابه نهاية الارب فى معرفة أنساب العرب : ان العرب هم أهل الامصار ، والاعراب سكان

البادية ، وفى العرف تطلق لفظ العرب على الجميع ، وقال ابن تيمية فى كتاب الاقتضاء : ان لفظ الاعراب هو فى الاصل اسم لبادية العرب فان كل أمة لها حاضرة و بادية فبادية العرب الاعراب وقد يقال ان بادية الروم الارمن ونحوهم و بادية الفرس الاكراد ونحوهم و بادية الترك التتر ونحوهم قال وهذا والله أعلم هو الاصل وان كان قد يقع فيه زيادة ونقصان ، وقال أهل التفسير : الاعراب صيغة جمع وليست بجمع للعرب على ما روى عن سيبويه لئلا يلزم كون الجمع أخص من الواحد فان العرب هذا الجيل المعروف مطلقاً والاعراب سكان البادية منهم ولذا نسب الى الاعراب على لفظه فقيل اعرابى وقال فريق منهم العرب سكان المدن والقرى والاعراب سكان البادية من هذا الجيل أو مواليهم فعلى هذا القول هما متباينان ويفرق بين الجمع والواحد بالياء فيهما فيقال للواحد عربى واعرابي وللجماعة عرب واعراب وكذا أعاريب وذلك كما يقال للواحد مجوسى ويهودى ثم تحذف الياء فى الجمع فيقال المجوس واليهود واستعمال البلغاء يوافق قول المفسرين ففى الكتاب الكريم عند بيان أحوال منافقى العرب أثر بيان منافقى أهل المدينة من سورة التوبة : وجاء المعذرون من الاعراب ليؤذن لهم وفى آية أخرى : وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم ، وفى أخرى : الاعراب أشد

كفراً وتفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم . ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم ، ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول الا انها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته ان الله غفور رحيم ، والمؤرخون على القول بأن الاعراب قسم من العرب ففى كتاب العبر عنــد القول فى أجيال العرب وأوليتها واختلاف طبقاتهم : اعلم ان العرب منهم الأمة الراحلة الناجعة أهل الخيام لسكناهم والخيل لركوبهم والانعام لكسبهم يقومون عليها ويقتاتون من ألبانها ويتخذون الدفء والأثاث من أوبارها وأشعارها ويحملون أثقالهم على ظهورها يتنازلون حللا متفرقة ويبتغون الرزق فى غالب أحوالهم من القنص ويتقلبون دائماً فى المجالات فراراً من حمارة القيظ تارة وصبارة البرد أخرى وانتجاعاً لمراعى غنمهم وارتياداً لمصالح ابلهم الكفيلة بمعاشهم وحمل أثقالهم ودفئهم ومنافعهم فاختصوا لذلك بسكنى الاقليم الثالث ما بين البحر المحيط من المغرب الى أقصى اليمن وحدود الهند من المشرق فعمروا اليمن والحجاز ونجداً وتهامة وما وراء ذلك مما دخلوا اليه فى المائة الخامسة كما ذكروه من مصر وصحارى برقة وتلولها وقسطنطينية وافريقية وزاغاو المغرب الاقصى والسوس لاختصاص هذه البلاد بالرمال والقفار المحيطة بالارياف والتلول

والارياف الآهلة عن سواهم من الامم فى فصل الربيع وزخرف
الارض لرعى الكلاء والعشب فى منابتها والتنقل في نواحيها الى
فصل الصيف لمدة الاقوات فى سنتهم من حبوبها ، وربما يلحق
أهل العمران أثناء ذلك معرات من أضرارهم بافساد السابلة ورعى
الزرع مخضراً وانتهابه قائماً وحصيداً الا ما حاطته الدولة وذادت
عنه الحامية فى الممالك التى للسلاطين عليهم فيها ، ثم ينحدرون
فى فصل الخريف الى القفار لرعى شجرها ونتاج ابلهم فى رمالها
وما أحاط به عملهم من مصالحها وفراراً بأنفسهم وظعائنهم من
أذى البرد الى دفاء مشاتيها فلا يزالون فى كل عام مترددين بين
الريف والصحراء ما بين الاقليم الثالث والرابع صاعدين ومنحدرين
على ممر الايام ، شعارهم لبس المخيط فى الغالب ولبس العمائم تيجاناً
على رؤسهم يرسلون من أطرافها عذبات يتلثم قوم منهم بفضلها
وهم عرب المشرق وقوم يلفون منها الليت والاخدع قبل لبسها
ثم يتلثمون بما تحت أذقانهم من فضلها وهم عرب المغرب حاكوا
بها عمائم زناتة من أمم البربر قبلهم وكذلك لقنوا منهم فى حمل
السلاح اعتقال الرماح الخطية وهجروا تنكب القسى وكان المعروف
لاولهم ومن بالمشرق لهذا العهد منهم استعمال الامرين ، انتهى
المقصود من نقله وهذا هو المشهور وعليه من أهل اللغة الجمهور

معنى الجاهلية وما تطلق عليه

الجاهلية الزمان الذى كثر فيه الجهال وهى ما قبل الاسلام. وقيل أيام الفترة وهى الزمن بين الرسولين وقد تطلق على زمن الكفر مطلقاً وعلى ما قبل الفتح وعلى ما كان بين مولد النبى والمبعث «وعن ابن خالويه» ان هذا اللفظ اسم حدث فى الاسلام للزمن الذى كان قبل المبعثة « قال العسقلانى » فى شرحه على البخارى وهذا هو الغالب ومنه يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ثم قال وأما جزم النووى فى عدة مواضع فى شرح مسلم ان هذا هو المراد حيث أتى ففيه نظر فان هذا اللفظ وهو الجاهلية يطلق على ما مضي والمراد ما قبل اسلامه وضابط آخره فتح مكة انتهى .

وتفصيل الكلام ان لفظ الجاهلية قد يكون اسماً للحال وهو الغالب فى الكتاب والسنة وقد يكون اسماً لذي الحال ، فمن الاول قول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لابى ذر انك امرؤ فيك جاهلية ، وقول عمر رضى الله تعالى عنه انى نذرت فى الجاهلية أن أعتكف ليلة ، وقول عائشة رضى الله تعالى عنها كان النكاح فى الجاهلية على أربعة أنحاء ، وقولهم يا رسول الله كنا فى جاهلية وشر أى فى حال جاهلية أو طريقة جاهلية أو عادة جاهلية ونحو ذلك فان الجاهلية وان كانت فى الاصل صفة ولكن غلب عليه

الاستعمال حتى صار اسما ومعناه قريب من معنى المصدر ، وأما الثانى فتقول طائفة جاهلية وشاعر جاهلى وذلك نسبة الى الجهل الذى هو عدم العلم أو عدم اتباع العلم فأما من لم يعلم الحق فهو جاهل جهلا بسيطاً فان اعتقد خلافه فهو جاهل جهلا مركباً فان قال خلاف الحق عالماً بالحق أو غير عالم فهو جاهل أيضا كما قال تعالى واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، وقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل ، ومن هذا قول عمرو بن كلثوم فى قصيدته :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

أى لا يسفه أحد علينا فنسفه عليهم فوق سفههم أى نجازيهم بسفههم جزاء يربى عليه ، واستعمال هذا اللفظ بهذا المعنى كثير وكذلك من عمل بخلاف الحق فهو جاهل وان علم انه مخالف للحق كما قال سبحانه انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب . قال أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم كل من عمل سوءا فهو جاهل وان علم انه مخالف للحق . وسبب ذلك ان العلم الحقيقى الراسخ فى القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعفه فى القلب بمقاومة ما يعارضه وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فتصير جهلا بهذا الاعتبار ومن هنا تعرف دخول الأعمال فى مسمى الايمان حقيقة لا مجازاً وان لم يكن كل من ترك شيئاً

من الأعمال كافراً ولا خارجاً عن أصل مسمى الايمان وكذلك اسم العقل ونحو ذلك من الاسماء ولهذا يسمى الله تعالى أصحاب هذه الأحوال موتى وعميا وبكما وصما وضالين وجاهلين ويصفهم بأنهم لا يعقلون ولا يسمعون ويصف المؤمنين بأولى الألباب وأولى النهي وانهم مهتدون وان لهم نوراً وانهم يسمعون ويعقلون . فاذا تبين ذلك فالناس قبل مبعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى حال جاهلية جهلا منسوباً الى الجاهل فان ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال انما أحدثه لهم جاهل وانما يفعله جاهل. وكذلك كل ما يخالف ما جاءت به المرسلون من يهودية أو نصرانية فهي جاهلية وتلك كانت الجاهلية العامة ، فأما بعد مبعث الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فالجاهلية المطلقة قد تكون فى مصر دون مصر كما هى فى دار غير الاسلام وقد تكون فى شخص دون شخص كالرجل قبل أن يسلم فانه فى جاهلية وان كان فى دار الاسلام فأما فى زمان مطلقاً فلا جاهلية بعد بعث محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فانه لا تزال من أمته طائفة ظاهرين على الحق الى قيام الساعة ، والجاهلية المقيدة قد تقوم فى بعض ديار المسلمين وفى كثير من الأشخاص المسلمين كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم ، أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب ، والطعن فى الانساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة ، وقال

لأبى ذر لما عير رجلا بأمه انك امرؤ فيك جاهلية . فهذه كلها جاهلية وان كان لفظ الجاهلية لا يقال غالباً الا على حال العرب التى كانوا عليها قبل الاسلام . لما كانوا عليه من مزيد الجهل فى كثير من الاعمال والاحكام

روى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انه قال : اذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة فى سورة الانعام قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين . وقد اختلف المفسرون فى المراد من الجاهلية الاولى فى قوله تعالى وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى . فقيل كانت فى الزمن الذى ولد فيه ابراهيم عليه السلام فقد كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال . وقال الحكم بن عينية كانت بين آدم ونوح وهى ثمانمائة سنة وحكيت لهم سيرة ذميمة . وقال ابن عباس ما بين نوح وادريس . وقال الكلبى ما بين نوح وابراهيم قيل ان المرأة كانت تلبس الدرع من اللؤلؤ غير مخيط الجانبين وتلبس الثياب الرقاق ولا توارى بدنها ، وقالت فرقة ما بين موسى وعيسى . وقال الثعلبى ما بين عيسى ومحمد صلى الله تعالى عليه وسلم . وقال أبو العالية هى زمان داود وسليمان عليهما السلام كان للمرأة قيص من الدر غير مخيط الجانبين . وكان النساء يظهرن ما يقبح اظهاره

حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وخلها فينفرد خلها بما فوق الازار وينفرد زوجها بمادون الازار الى أسفل وربما سأل أحدهما صاحبه البدل . وقال مجاهد كانت النساء يمشين بين الرجال فذلك التبرج . قال ابن عطية والذى يظهر عندي انه تعالى أشار للجاهلية التى أدركنها فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها وهى ما كان قبل الشرع من سيرة الكفار لانهم كانوا لا غيرة عندهم فكان أمر النساء دون حجبة وجعلها أولى بالنسبة الى ما كن عليه . وليس المعنى ان ثم جاهلية أخرى وقد أوقع لفظ الجاهلية على تلك المدة التى قبل الاسلام كما لا يخفى

بيان فضل جنس العرب وما امتازوا به

اعلم ان كمال كل نوع انما هو بحصول صفاته الخاصة به وصدور آثاره المقصودة منه وبحسب زيادة ذلك ونقصانه يفضل بعض أفراده بعضا . الى أن يعد أحدهما سماء والآخر أرضا . والانسان مشارك لسائر الأجسام فى الحصول فى الحيز والفضاء . وللنباتات فى الاغتذاء والنشؤ والنماء . وللحيوانات العجم فى حيوته بأنفاسه . وحركته بارادته واحساسه . وانما يتميز بما أعطى من القوة النطقية . وما يتبعهما من العقل والعلوم الضرورية . والاعمال الصالحة المرضية . وأهليته للنظر والاستدلال . وترقيه بذلك

فى مدا ج الكمال . وعلمه بما أمكن واستحال . فاذا كماله انما هو بتعقل المعقولات . واكتساب المجهولات . وبالأخلاق الحسنة التابعة للأعمال الصالحات . فالانسان فضل على سائر الحيوانات كلها فى نفسه وجسمه ، « أما فضله فى نفسه » فبالقوة المفكرة التي بها العقل والعلم والحكمة والتدبير والرأى ، فان البهائم وان كان كلها يحس وبعضها يتخيل فليس لها فكرة ولا روية ولا استنباط المجهول بالمعلوم ولا تعرف علل الاشياء ولا أسبابها وليس فى قوتها تعلم الصناعات الفكرية وانما يتعلم بعضها بعض الصناعات المتخيلة فأقواها فى ذلك الفيل والقرد ، « وأما فضله فى جسمه » فباليد العاملة واللسان الناطق وانتصاب القامة الدال على استيلائه على كل ما أوجد في هذا العالم وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله : لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ، وقوله : وصوركم فأحسن صوركم ، ولم يعن الصورة التخطيطية فقط بل عناها والصورة المعقولة ولتشريفه تعالى اياه بذلك قال : ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ، ومن زعم ان الانسان خلق خلقة ناقصة عن الوحشيات من حيث انه لم يكف الملبس كما كفيته ولم يعط سلاحاً فى ذاته كما أعطى كثير منها فنظره ناقص اذ قد أعطى الانسان بدل ذلك التمييز الذي يمكنه أن يتخذ به كل ملبس وكل سلاح حسب ما يريده فيتناوله متى أراد ويضعه متى

أحب ثم لو أعطى الانسان بعض الاسلحة التى أعطيته لم يمكنه أن يستعمل غيره كالوحشيات وأيضاً فلو أعطى ذلك لكان من الحق أن لا يعطي التمييز لانه حينئذ كان يستغنى عنه فتبطل فائدته وفعل الله تعالى منزه عن ذلك . ان قيل كيف قال تعالى خلق الانسان ضعيفا فاستضعفه . قيل ضعفه بالاضافة الى الملأ الأعلى لما فيه من الحاجات البدنية التى كفيها . فاذا كان مناط الفضيلة ما ذكرناه ففضل جنس العرب على غيرهم بسبب ما اختصوا به فى عقولهم وألسنتهم وأخلاقهم وأعمالهم . وذلك ان الفضل إما بالعلم النافع وإما بالعمل الصالح والعلم له مبدأ وهو قوة العقل الذى هو الحفظ والفهم وتمام وهو قوة المنطق الذى هو البيان والعبارة والعرب هم أفهم من غيرهم واحفظ واقدر على البيان

« أما كمالهم فى الفهم » فلانهم كانوا لا يبارون قوة ذكاء واصابة حدس وحدة ألمعية وصدق فراسة يخبرون عن الغائب بقوة ذكائهم كأن قد شاهدوه . ويصف لهم الحدس الصائب حال الورد قبل أن يردوه . ويثبتون أبعد شيء بحدة ألمعيتهم كأن ليس ببعيد . وينظم لهم المجهول صدق فراستهم فى سلك المعروف منذ زمان مديد . وقد كان منهم فى الازمنة المتأخرة من هو دون السابقين بمراتب كثيرة ومع ذلك يتفطنون للرمزة والدقيقة ويتنبهون من اللحظة الخفية والاشارة اللطيفة ، كما يحكى انه سليمان بن عبد الملك أتى بأسارى وكان الفرزدق حاضراً فأمره

سليمان بضرب واحد منهم فاستعفى فما عفى وقد أشير الى سيف غير صالح للضرب ليستعمله فقال الفرزدق بل اضرب بسيف أبي رغوان سيف مجاشع يعني نفسه وكانه قال لا يستعمل ذلك السيف إلا ظالم أو ابن ظالم ثم ضرب بسيفه الاسير واتفق أن نبا السيف فضحك سليمان ومن حوله ، فقال الفرزدق :

أيعجب الناس ان أضحكت سيدهم
خليفة الله يستسقى به المطر
لم ينب سيفى من رعب ولا دهش
عن الاسير ولكن أخر القدر
ولن يقدم نفساً قبل ميتها
جمع اليدين ولا الصمصامة الذكر

ثم أغمد سيفه وهو يقول :

ما ان يعاب سيد اذا صبا ولا يعاب صارم اذا نبا
ولا يعاب شاعر اذا كبا

ثم جلس يقول كأني بابن المراغة قد هجاني فقال :

بسيف أبى رغوان سيف مجاشع
ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

وقام وانصرف وحضر جرير فخبر الخبر ولم ينشد الشعر ، فأنشأ يقول :

بسيف أبى رغوان سيف مجاشع

ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

فأعجب سليمان ما شاهد ثم قال يا أمير المؤمنين كأنى بابن القين قد أجابنى فقال :

ولا نقتل الاسرى ولكن نفكهم

اذا أثقل الاعناق حبل المغارم

ثم أخبر الفرزدق بالهجو دون ما عداه فقال مجيباً :

كذاك سيوف الهند تنبو ظباتها

وتقطع أحياناً مناط التمائم

ولا نقتل الاسرى ولكن نفكهم

اذا أثقل الاعناق حمل المغارم

وهل ضربة الرومى جاعلة لكم

أباً عن كليب أو أخاً مثل دارم

وما يحكى ان ذا الرمة استرفد جريراً فى قصيدته التى مستهلها:

نبت عيناك عن طلل بحزوى   عفته الريح وامتنح القطارا

عدة أبيات فقالها له وهى هذه :

يعد الناسبون الى تميم   بيوت المجد أربعة كبارا

يعدون الرباب وآل بكر   وعمراً ثم حنظلة الخيارا

ويذهب فيهما المرئى لغوا   كما ألغيت فى الدية الحوارا

فضمنها القصيدة وهى اثنان وخمسون قافية ثم مر به الفرزدق

فاستنشده اياها فأخذ ينشدها والفرزدق يستمع لا يزيد على الاستماع حتى بلغ هذه الأبيات الثلاثة استعادها منه الفرزدق مرتين ، ثم قال والله لقد علكهن من هو أشد منك لحيين .

وما يحكى ان عمر بن لجاء أنشد جريراً شعراً فقال ما هذا شعرك هذا شعر حنظلي . ولا تسأل عن فطانتهم المنتهية على الرمزة اللطيفة . وحدة نظرهم الداركة للمحة الضعيفة . كما يترجم عن ذلك الروايات عنهم المشهورة .

يروى ان فزاريا ونميريا تسايرا فقال الفزاري للنميري غض لجام فرسك فقال انها مكتوبة وانما أراد الفزاري ما قيل في بني نمير :

فغض الطرف انك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وانما عنى النميري ما قيل في بني فزارة :

لا تأمنن فزارياً خلوت به على قلوصك واكتبها باسيار

وان واحداً من نمير وهو شريك النميري لقي رجلا من تميم فقال له التميمي يعجبني من الجوارح البازي قال شريك وخاصة ما يصيد القطا أراد التميمي بقوله البازي :

أنا البازي المطل على نمير أتيح من السماء له انصبابا

وعنى شريك بذكر القطا قول الطرماح .

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا

ولو سلكت سبل المكارم ضلت

وان معاوية قال لأحنف : ما الشيء الملفف فى البجاد فقال السخينة وانما أراد معاوية قول القائل :

اذا ما مات ميت من تميم فسرك أن يعيش فجيء بزاد
بخبز أو بتمر أو بسمن أو الشيء الملفف فى البجاد
تراه يطوف فى الافاق حرصاً ليأكل رأس لقمان بن عاد

وكان الاحنف من تميم وانما أراد الاحنف بالسخينة وهى حساء يؤكل عند غلاءِ السعر ، وكان قوم معاوية يقتصرون عليه. رميهم بالبخل ، وان رجلا من بنى محارب دخل على عبد الله بن يزيد الهلالى فقال عبد الله ماذا لقينا البارحة من شيوخ محارب ما تركونا ننام وأراد قول الأخطل :

تكش بلا شيء شيوخ محارب وما خلتها كانت تريش ولا تبرى
ضفادع فى ظلماء ليل تجاوبت فدل عليها صوتها حية البحر

فقال أصلحك الله تعالى أضلوا البارحة برقعاً فكانوا فى طلبه أراد قول القائل :

لكل هلالى من اللؤم برقع ولابن يزيد برقع وجلال

وان رجلا وقف على الحسن ابن أبى الحسين البصرى رحمة الله عليه فقال اعتمر اخرج ابادر . فقال كذبوا عليك ما كان ذلك ان السائل أراد عثمان اخرج اباذر .

وان الحسن بن وهب نهض ذات ليلة من مجلس ابن الزيات . فقال سحير أى بت بخير فقال له ابن الزيات بنيه أى بت به .

وما ظنك بكياسة جيل قد بلغت من الذكاء نساؤهم الى حد نقدهن للكلام مايحكى أنشدت واحدة . وكانت الخنساء :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فقالت أى نخر يكون فى ان له ولعشيرته ولمن ينضوى اليهم من الجفان ما نهايتها فى العدد عشرة وكذا من السيوف الا استعمل جمع الكثرة الجفان والسيوف . وأى نخر فى أن تكون جفنته وقت الضحوة وهو وقت تناول الطعام غراء لامعة كجفان البائع أما يشبه أن قد جعل نفسه وعشيرته بائعى عدة جفنات ثم اني يصلح للمبالغة فى التمدح بالشجاعة وانه فى مقامها يقطرن أما كان يجب أن يتركها الى يسلن أو يفضن أو ما شا كل ذلك .

وقد اجتمع راوية جرير وراوية كثير وراوية جميل وراوية نصيب وأخذ يتعصب كل واحد لصاحبه ويجمع له فى البلاغة قصب الرهان فحكموا واحدة وكانت سكينة . فقالت لراوية جرير أليس صاحبك القائل :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا حين الزيارة فارجعى بسلام

وأي ساعة أولى بالزيارة من الطروق قبح الله صاحبك وقبح شعره . ثم قالت لراوية كثير أليس صاحبك الذى يقول :

يقر بعينى ما يقر بعينها وأحسن شيء ما به العين قرت

وليس شيء أقر لعيونهن من النكاح أفيحب صاحبك أن ينكح قبح الله صاحبك وقبح شعره . ثم قالت لراوية جميل أليس صاحبك الذى يقول :

فلو تركت عقلى معى ما طلبتها　　وان ظلابيها لما فات من عقلى

فما أرى لصاحبك هوى انما طلب عقله قبح الله صاحبك وقبح شعره . ثم قالت لراوية نصيب أليس صاحبك الذى يقول :

أهيم بدعد ما حييت فان أمت　　فياويح نفسى من يهيم بها بعدى

أما كان لصاحبك هم الا هم من يهيم بها قبح الله صاحبك وقبح شعره . الا قال :

أهيم بدعد ما حييت فان أمت　　فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى

بل قد وصل العرب فى الفطنة والذكاء وحسن الفهم الى ما كاد أن يصل الى حد الاعجاز

وفى الاغانى لأبى فرج الاصبهانى بسنده الى عبد الملك بن عمير . قال قدم علينا عمرو بن هبيرة الكوفة فأرسل الى عشرة أنا أحدهم من وجوه الكوفة فسمروا عنده . ثم قال ليحدثنى كل رجل منكم احدوثة وابدأ أنت يا أبا عمرو . فقلت أصلح الله الأمير أحديث الحق أم حديث الباطل ؟ قال بل حديث الحق قلت : ان امرأ القيس آلى بالية أن لا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة وثنتين فجعل يخطب النساء فاذا سألهن عن هذا قلن أربعة عشر فبينما هو يسير فى جوف الليل اذا هو برجل يحمل ابنة له صغيرة كأنها البدر ليلة تمامه فأعجبته . فقال لها يا جارية ما ثمانية وأربعة واثنتان . فقالت اما ثمانية فاطباء الكلبة واما أربعة فاخلاف الناقة واما ثنتان فثديا المرأة فخطبها

الى أبيها فزوجه اياها وشرطت هى عليه أن تسأله ليلة بنائها عن ثلاث خصال فجعل لها ذلك وعلى أن يسوق اليها مائة من الابل وعشرة اعبد وعشر وصائف وثلاثة أفراس ففعل ذلك . ثم انه بعث عبداً له الى المرأة وأهدى اليها نحيا من سمن ونحيا من عسل وحلة من عصب ، فنزل العبد ببعض المياه فنشر الحلة ولبسها فتعلقت بشعره فانشقت وفتح النحيين فطعم أهل الماء منهما فنقصا ثم قدم على حى المرأة وهم خلوف فسألها عن أبيها وأمها وأخيها ودفع اليها هديتها . فقالت له اعلم مولاك ان أبى ذهب يقرب بعيداً ويبعد قريباً . وان أمى ذهبت تشق النفس نفسين وان اخى يراعى الشمس وان سمائكم انشقت وان وعائيكم نضبا فقدم الغلام على مولاه فأخبره . فقال أما قولها ان أبى ذهب يقرب بعيداً ويبعد قريباً فان أباها ذهب يحالف قوما على قومه واما قولها ذهبت أمى تشق النفس نفسين فان أمها ذهبت تقبل امرأة نفساء . واما قولها ان أخى يراعى الشمس فان أخاها فى سرح له يرعاه فهو ينتظر وجوب الشمس ليروح به . واما قولها ان سمائكم انشقت فان البرد الذى بعثت به انشق . واما قولها ان وعائيكم نضبا فان النحيين اللذين بعثت بهما نقصا . فاصدقنى فقال يا مولاى انى نزلت بماء من مياه العرب فسألونى عن نسبى فأخبرتهم انى ابن عمك ونشرت الحلة فانشقت وفتحت النحيين فأطعمت منهما أهل الماء فقال أولى لك ثم ساق مائة من الابل

وخرج نحوها ومعه الغلام فنزلا منزلا فنحرج الغلام يسقي الابل فعجز فأعانه امرؤ القيس فرمى به الغلام فى البئر . وخرج حتى أتى المرأة بالابل وأخبرهم انه زوجها فقيل لها قد جاء زوجك فقالت والله ما أدرى أزوجى هو أم لا ولكن انحروا له جزوراً وأطعموه من كرشها وذنبها ففعلوا فقالت اسقوه لبناً حاذراً وهو الحامض فسقوه فشرب فقالت افرشوا له عند الفرث والدم ففرشوا له فنام فلما أصبحت أرسلت اليه أني أريد ان أسألك . فقال سلى عما شئت فقالت مم تختلج شفتاك قال لتقبيلى اياك . قالت فمم يختلج كشحاك قال لالتزامى اياك . قالت فمم يختلج فخذاك قال لتوركى اياك . قالت عليكم العبد فشدوا أيديكم به ففعلوا

قال ومر قوم فاستخرجوا امرأ القيس من البئر فرجع الى حيه فاستاق مائة من الابل وأقبل الى امرأته . فقيل لها قد جاء زوجك فقالت والله ما أدرى أهو زوجى أم لا ولكن انحروا له جزوراً فاطعموه من كرشها وذنبها ففعلوا . فلما أتوه بذلك . قال وأين الكبد والسنام والملحاء فأبى أن يأكل . فقالت اسقوه لبناً حاذراً فأبى أن يشربه وقال فأين الصريف والرثيئة فقالت افرشوا له عند الفرث والدم فأبى أن ينام وقال افرشوا الى فوق التلعة الحمراء واضربوا عليها خباء . ثم أرسلت اليه هلم شريطتى عليك فى المسائل الثلاث فأرسل اليها أن سلى عما شئت . فقالت مم يختلج شفتاك . قال لشربى المشعشعات قالت فمم يختلج كشحاك .

قال للبسى الحبرات . قالت فم يختلج فخذاك . قال لركضى المطهمات . قالت هذا زوجى لعمرى فعليكم به واقتلوا العبد فقتلوه ودخل امرؤ القيس بالجارية . فقال ابن هبيرة حسبكم فلا خير فى الحديث في سائر الليلة بعد حديثك يا أبا عمرو ولن تأتينا بأعجب منه فقمنا وانصرفنا وأمر لى بجائزة .

وقال المبرد فى كتابه الموسوم بالروضة : كانت العرب تستدل باللحظة واللفظة . فمن ذلك ما روى ان جميلا قال لكثير لو صرت الى بثينة فأخذت لى عنها موعداً . فقال ان غاشية عمها كثير . فقال ان الحيلة تأتى من وراء ذلك فأطرق كثير اطراقه . ثم قال متى كان آخر عهدك بها . قال يوم كذا قال فى أى موضع قال فى واد يقال له وادى الدوم فأصاب ثوبها شيء فغسلته قال فأتى الحي فجعل يتحدث اليهم حتى أتى عمها فحادثه وقال أسمعك أبياتاً فى عزة حضرتنى قال هاتها فأعلن انشاده لتسمع بثينة وقال :

أقول لها يا عز ارسل صاحبى على نأى دار والرسول موكل
بأن تجعلى بينى وبينك موعدا وأن تأمرينى بالذى فيه أفعل
أما تذكرين العهد يوم لقيتكم باسفل وادى الدوم والثوب يغسل

فعلمت إنه إياها يقصد بالعلامة فصاحت اخسأ فصاح بها عمها ما خسأت قالت كلباً يعترينا ليلا ثم رأيته الساعة . فرجع كثير الى جميل فقال ائتها الليلة فانها ذكرت الليل .

وقال ابن الاعرابي أسرت طي رجلا شاباً من العرب فقدم

عليه أبوه وعمه ليفدياه فاشتطوا عليهما فى الفداء فأعطيا به عطية فلم يرضوا بها فقال أبوه لا والذى جعل الفرقدين يصبحان ويمسيان على جبل طي لا أزيدكم على ما أعطيتكم ثم انصرفا فقال الأب للعم لقد ألقيت الى ابنى كليمة لئن كان فيه خير لينجون بها فما لبث أن نجا واطرد قطعة من ابلهم فذهب بها كأنه قال الزم الفرقدين على جبل طى فانهما طالعان عليه وهما لا يغيبان عنه .

وفى كتاب الملاحن يروى عن ابن دريد فى أسير بكر بن وائل حيث سألهم رسولا الى قومه فقالوا لا ترسل الا بحضرتنا اشفاقاً منه أن ينذرهم فقد كانوا هموا بغزو قومه فجيء بعبد اسود فقال له أتعقل قال نعم انى لعاقل قال ما أراك عاقلا . ثم قال ما هذا وأشار بيده الى الليل فقال هذا الليل فقال أراك عاقلا . ثم ملأ كفيه من الرمل فقال كم هذا قال لا أدري وانه لكثير قال أيما أكثر النجوم أم النيران قال كل كثير . قال أبلغ قومى التحية وقل لهم أكرموا فلاناً يعنى أسيراً كان فى أيديهم فانهم لى مكرمون وقل لهم ان العرفج قد أدبا . وقد شكت النساء ومرهم أن يعروا ناقتى الحمراء فقد أطالوا ركوبها وان يركبوا جملى الاصهب بآية ما أكلت معكم حيسا وسلوا الحارث عن خبرى . فلما أدى العبد اليهم الرسالة قالوا قد جن الاعور . والله ما نعرف له ناقة حمراء ولا جملا أصهب ثم سرحوا العبد ودعوا الحارث وقصوا عليه القصة فقال قد أنذركم . أما قوله قد أدبا العرفج أى

الرجال قد استلئموا ولبسوا السلاح . وقوله شكت النساء أى اتخذوا الشكا للسفر والشكوة القربة الصغيرة . وقوله أعروا ناقتى الحمراء . أي ارتحلوا عن الدهناء وازكبو الصمان وهو الجمل الاصهب . وقوله أكلت معكم حيسا يريد أخلاطاً من الناس قد غزوكم لان الحيس يجمع السمن والتمر والاقط . فامتثلوا ذلك وعرفوا ما قال فأخذ هذا المعنى رجل كان أسيراً فى بنى تميم فكتب الى قومه ملغزاً فى الشعر ينذرهم :

خلوا عن الناقة الحمراء واقتعدوا الـ ... عود الذى فى جنابى ظهره وقع
ان الذئاب قد اخضرت براثنها ... والناس كلهم بكر اذا شبعوا

قال أبو عثمان الاشنانداني فى أبيات المعانى أراد بالناقة الحمراء الدهناء وهى أرض لبنى تميم تشبيهاً بالناقة لتأتيها وسهولة ركوبها لانها أرض فلاة سهلة واقتعدوا العود أى اسكنوا الصمان وهو بلد لبنى تميم أرض غليظة صلبة . وانما شبهه بالعود لتذكير اسمه والعود المسن من الابل وجعل في ظهره وقعاً وهو آثار الدبر فى ظهر البعير تشبيهاً للصمان بما قد وطئ وكثرت آثار الناس فيه بظهر بعير موقع . يقول امتنعوا بركوب الصمان لانه وعر صلب يشق على الخيل أن تطأه والدهناء ممكنة . وأراد بالذئاب القوم الذين يغيرون عليهم شبههم بالذئاب لخفتهم وحرصهم على الغارة . وقوله قد اخضرت براثنها يريد قد اخضرت الارض وكثر العشب فيها وأمكن الغزو والاقدام مخضرة من الكلاء فجعل الاقدام

براثن . وقوله والناس كلهم بكراذا شبعوا يريد ان بكر ابن وائل أشد الناس عداوة لبني تميم يقول : اذا شبعوا وأخصبوا فعداوتهم كعداوة بكر .

ومن الغريب في هذا الباب ما روى المرزبان ان رجلا كثير المال صحب عبدين في سفر فلما توسطا الطريق هما بقتله فلما صح ذلك عنده . قال أقسم عليكما اذا كان لا بد لكما من قتلى أن تمضيا الى داري وتنشدا ابنتي هذا البيت ، قالا وما هو قال :

من مبلغ بنتي ان أباهما لله دركما ودر أبيكما

فقال أحدهما للآخر ما نرى به بأساً فلما قتلاه جاءا الى داره وقالا لابنته الكبرى ان أباك لحقه ما يلحق الناس وآلى علينا أن نخبركما بهذا البيت فقالت الكبرى ما أرى فيه شيئاً تخبراني به ولكن اصبرا حتى أستدعى أختى الصغرى فاستدعتها فأنشدتها البيت فخرجت حاسرة وقالت هذان قتلا أبي يا معشر العرب ما أنتم فصحاء قالوا وما الدليل عليه قالت المصراع الثاني يحتاج الى أول والأول يحتاج الى ثان لا يليق أحدهما بالآخر قالوا فما ينبغي أن يكون قالت ينبغي أن يكون :

من مخبر بنتي ان أباهما أمسى قتيلا بالفلاة مجندلا
لله دركما ودر أبيكما لن يبرح العبدان حتى يقتلا

قال فاستخبروهما فوجدوا الأمر على ما ذكرت .

ومما يدل على غزارة فهم العرب ودقيق نظرهم ما اختصوا به من قرع العصا وهو أشد أنواع الرموز استخراجاً وأصعبها استنباطاً لخلوه من النطق وللاقتصار فيه على مجرد الفعل فانه اشارة بالفعل دون القول . وقد ادعى بنو قيس بن ثعلبة اذ أول من قرع العصا سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة قرعها لأخيه عمرو بن مالك وذلك حين لقى النعمان سعداً ومعه خيل بعضها يقاد وبعضها اعراء مهملة . فلما انتهى الى النعمان سأله عنها فقال سعد انى لم أقد هذه لامنعها . ولم أعر هذه لاضيعها . فسأله النعمان عن أرضه هل أصابها غيث يحمد أثره . أو روى شجره . فقال سعد أما المطر فغزير . وأما الورق فشكير . وأما النائدة فساهرة . وأما الحازرة فشبعي نائمة . وأما الرشاء فقد امتلأت مساريها . وابتلت جنابتها وروى جنابها . وأما الجوف فغدر لا تطلع . وأما الحذف فعزاف لا ينكع . يفتر اذا يرتع . فقال النعمان وحسده على ما رأى من ذرب لسانه وأبيك انك لمفوه فان شئت أتيتك بما تعيا عن جوابه . فقال شئت ان لم يكن منك افراط ولا ابعاط . فأمر النعمان وصيفاً فلطمه . وانما أراد أن يتعدى فى القول فيقتله . فقال ما جواب هذه . فقال سعد سفيه مأمور فأرسلها مثلا . قال النعمان للوصيف ألطمه أخرى فلطمه . قال ما جواب هذه قال لو نهى عن الاولى لم يعد للاخرى فأرسلها مثلا . فقال النعمان ألطمه أخرى ففعل فقال ما جواب

هذه فقال رب يؤدب عبده فقال ألطمه أخرى ففعل فقال ما جواب هذه فقال ملكت فأسجح . فقال النعمان أجبت فاقعد فمكث عنده ما مكث . ثم بدا للنعمان أن يبعث رائداً يرتاد له الكلا فبعث عمرو بن مالك أخا سعد بن مالك فأبطأ عليه فأغضبه ذلك . فأقسم لئن جاء حامداً للكلاء أو ذاماً ليقتلنه فلما قدم عمرو دخل على النعمان وعنده الناس وسعد قاعد لديه مع الناس وكان قد عرف ما أقسم به النعمان من يمينه فقال سعد أتأذن لي فأكلمه قال ان كلمته قطعت لسانك . قال فأشير اليه . قال ان أشرت اليه قطعت يدك . قال فأومي اليه قال اذن انزع حدقتيك . قال فاقرع له العصا قال اقرع فتناول عصا من بعض جلسائه فوضعها بين يديه وأخذ عصاه التي كانت معه وأخوه قائم فقرع بعصاه العصا الأخرى قرعة واحدة فنظر اليه أخوه ثم أومى بالعصا نحوه فعرف انه يقول مكانك ثم قرع العصا قرعة واحدة ثم رفعها الى السماء ثم مسح عصاه بالاخرى فعرف انه يقول قل له لم أجد جدبا ثم قرع العصا مراراً بطرف عصاه ثم رفعها شيئاً فعرف انه يقول لا نباتاً ثم قرع العصا قرعة وأقبل بها نحو النعمان فعرف انه يقول كلمه . فأقبل عمرو بن مالك حتى وقف بين يدي النعمان فقال له النعمان هل حمدت خصبا . أو ذممت جدبا . فقال عمرو لم أذمم جدبا . ولم أحمد بقلا . الارض ممسكة لا خصبها يعرف . ولا جدبها يوصف . رائدها واقف . ومنكرها عارف .

وآمنها خائف . فقال النعمان أولى لك بذلك نجوت فنجا وهو أول
من قرعت له العصا . فقال سعد بن مالك لقرعه العصا :

قرعت العصا حتى تبين صاحبي   ولم تك لولا ذاك للقوم تقرع
فقال رأيت الارض ليست بممحل   ولا سارح منها على الرعي يشبع
سواء فلا جدب فيعرف جدبها   ولا صابها غيث غزير فتمرع
فنجى بها حوباء نفس كريمة   وقد كاد لولا ذاك فيهم يقطع

قول سعد أما الورق فشكير يعنى انه صغير لم يكبر وأما
النافدة فساهرة يعنى التى قد نفدت من الهزال فلم يبق فيها قوة
فهي ساهرة لانها لم تشبع بعد فسهرها لفقد الشبع . والحازرة
يجب أن تكون من قولهم حزرة المال خياره أى هى تقتدر
بقوتها على الرعى فتشبع فتنام . والرشاء أرض فيها رمث .
والمسارب جمع مسرب وهى المواضع التى تسرب فيها المال .
وقوله ابتلت جنابتها فهي مثل الجناب . واذا قيل جنابثها فيجوز
أن يكون مثل الجنابذ وهى جمع جنبذة . والجنبذة المكان المرتفع
فأبدلت الثاء من الذال كما قالوا جث وجذ . ومن روى الرهاء
فيجوز أن يكون من الارض التى قد أصابها الرهام . والجوف
البطن من الارض . والغدر جمع غدير . يعنى ان الوادي لم يكثر
المطر فيسيل فيه فيرتفع سيله الى جوانبه فيجاوز حد الغدران .
والحذف ضرب من الشاء صغار وعزاف يعنى انها تعزف نفوسها

عن الماء لكثرته ولا ينكع . أى لا يقطع شربها . يقال نكع .
وانكع . اذا قطع . قال الشاعر :

بنى ثعل لا تنكعوا العنزشربها   بنى ثعل من ينكع العنز ظالم

وتفتر تكشف أسنانها اذا رفعت رؤسها من الرعى . وأولى
لك كلمة تقال للرجل اذا نجا من شر بعد ما كاد يصيبه . وقوله
حوباء نفس كريمة فيه وجوه يقال ان الحوباء النفس فاذا أخذ بها
فانما أضيفت الحوباء الى النفس فى شعر سعد لاختلاف اللفظين .
وربما قالوا الحوباء خالص النفس . وقال بعضهم الحوباء روح
القلب . وأهل اليمن يقولون ان أول من قرعت له العصا عمرو بن
حممة الدوسى . روى ذلك الشعبى عن ابن عباس وانه المراد
بذى الحلم فى قول الحارث بن وعلة

لا تأمنن قوماً ظلمتهم   وبدأتهم بالشتم والرغم
ان يأبروا نخلا لغيرهم   والشئ تحقره وقد ينمى
وزعمتم أن لا حلوم لنا   ان العصا قرعت لذى الحلم

يريد ان الامر والشأن لا حلوم لنا فان كان الامر كما زعمتم
فنبهونا أنتم فان الدوسى كان يقرع له العصا فينبه لما كان يزيغ
فى الحكم لكبر سنه . وهذا تهكم منهم أى عرضتم فى قولكم بأنا
سفهاء فاكتفينا بالتعريض عن التصريح كاكتفاء ذى الحلم بقرع
العصا . ومضر تدعى ان ذا الحلم عامر بن الظرب العدوانى واياه
عنى ذو الاصبع فى قوله

ومنهم حكم يقضى   فلا ينقض ما يقضى

وتدعيه ربيعة فتقول قيس بن خالد الشيبانى وهو جد بسطام ابن قيس بن مسعود بن قيس بن خالد . فأما ما يدعى لعمرو بن حممة فالخبر فيه وفى عامر بن الظرب واحد . وهو ان كل واحد منهما كان حكما للعرب يتحاكمون اليه فى كل معضلة . وهو لعمرو ابن حممة فى هذا الحديث أشهر . وذلك ان العرب أتوه يتحاكمون اليه فغلط فى حكومته وكان قد أسن فقالت له ابنته انك قد صرت تهم فى حكمك أى تغلط فقال اذا رأيت ذلك منى فاقرعي العصا فكان اذا قرعت له العصا فطن فثاب اليه حلمه فأصاب فى حكمه .

ومن الرموز بالفعل دون القول التى اختصت العرب بفهم المراد منها ما يروى فى الامثال عن أبى فيد السدوسى . قال : حدث أبو خالد الكلابي ان الاحوص بن جعفر أتى فقيل له أتانا رجل لا نعرفه ، فلما دنا من القوم حيث يرونه نزل عن راحلته وأتى شجرة فعلق عليها وطباً من لبن ، ووضع فى بعض أغصانها حنظلة ووضع صرة من تراب وصرة من شوك فى بعضها ثم أتى راحلته فاستوى عليها فنظر الاحوص والقوم فى أمره فعي به . فقال الاحوص ارسلوا الى قيس بن زهير فأتوا قيساً فجاؤا به اليه فقال له الاحوص ألم تكن تخبرني انه لا يرد عليك أمر الا عرفت مأتاه ما لم تر نواصى الخيل . قال وما الخبر فاعلموه فقال قد بين

الصبح لذى عينين فصار مثلا يضرب به في وضوح الشيء . قال أما صرة التراب فانه زعم انه أتاكم عدد كثير . وأما الحنظلة فانه يخبركم ان حنظلة قد أتتكم . وأما الشوك فانه يخبركم ان لها شوكة . وأما اللبن فهو دليل لكم على قرب القوم وبعدهم . فان كان حلوا حليباً فقد أتتكم الخيل . وان كان لا حلواً ولا حامضاً فعلى قدر ذلك . وان كان قارصاً فعلى قدره . وان كان خاثراً فلكم مهلة من الرأى . وانما ترك الرجل كلامكم لأنه قد أخذت عليه العهود وقد أنذركم ونظائر هذه الحكايات التى رواها الثقاة كثيرة . وسيأتى عند الكلام على علوم العرب ما يزيد المقام وضوحا . ولما كانت العرب فى قوة الفهم وحدة الذهن الى غاية الغايات كان معجزهم القرآن فان المعجز فى كل قوم بحسب أفهامهم وعلى قدر عقولهم وأذهانهم وكان فى بنى اسرائيل بلادة وغباوة لأنه لم ينقل عنهم ما تدون من كلام مستحسن أو يستفاد من معنى مبتكر . وقالوا لنبيهم حين مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم اجعل لنا الهاً كما لهم آلهة . فخصوا من الاعجاز بما يصلون اليه ببداية حواسهم . والعرب أصح الناس افهاماً . وأحدهم أذهاناً . قد ابتكروا من الفصاحة أبلغها . ومن المعاني أغربها . ومن الآداب أحسنها . فخصوا من معجز القرآن بما تجول فيه أفهامهم . وتصل اليه أذهانهم . فيدركونه بالفطنة دون البديهة . وبالروية دون البادرة .

لتكون كل أمة مخصوصة بما يشاكل طبعها . ويوافق فهمها .
والله ولى التوفيق .

وأما كون العرب أحفظ من غيرهم

فلأن الغالب منهم أميون . لا يقرؤن ولا يكتبون . بل ان جميع عرب البوادى كذلك ، ومع هذا حفظوا على سبيل التفصيل أيامهم وحروبهم ووقائعهم . وما قيل فيها من شعر وخطب . وما جرى من المفاخرات والمنافرات بين قبائلهم . وضبطوا أنسابهم وأسماء فرسانهم الذين نزلوا فى ميادين حروبهم وانهم من أى قبيلة والى أى أب ينتهون من الآباء الأولين . وأسلافهم السابقين . وكان أحدهم يقول الشعر بلغت أبياته ما بلغت فما هم الا أن سمعوه فانتقش فى صحائف خواطرهم وتمثل فى خيالهم . وهذا مما تساوى فيه العامة والخاصة منهم والصغير والكبير والذكر والانثى من أحيائهم . وذلك مما لا يستريب فيه أحد ولا يشك ذو نظر . وكانوا اذا جرت بينهم حادثة غريبة أو اتفقت لهم نكتة غريبة ضربوا بها الامثال . وسارت بين القبائل تلك الاقوال . فلا تغيب هاتيك الوقائع عن أفكارهم . ولا تزول مدى الليالى والايام عن خزائن خواطرهم .

وقد دون المتأخرون ما تلقوه من الثقاة . وما سمعوه من

أفواه الرواة . من أيامهم وأخبارهم . وأمثالهم وأشمارهم . فبلغ ذلك ما بلغ من المجامع والاسفار . حتى تجاوزت دوائر العد والانحصار . هذا مع ان ذلك بالنسبة الى مالم يصل اليهم كقطرة من بحار . وذرة من جبال وقفار . وأما الغالب من شعرهم ولغتهم وأيامهم الاول . فقد ذهب بذهابهم وبقى فى الصدور ولم ينقل . وأخذوا فى أكفانهم كثيراً من العلوم والفنون . حيث لم يجدوا من يحفظ حقوقها ويصون . وكان لكل شاعر منهم راوية يحفظ عنه ما يقول . وما ينشد فى المواقع والمجامع حين يصول ويجول . وكل راوية من رواتهم كان يحفظ من الاراجيز والقصيد وسائر فنون الشعر ما يفوت الاحصاء والحصر .

هذا الاصمعى من متأخريهم قال ما بلغت الحلم حتى رويت اثنى عشر ألف أرجوزة للاعراب . وكان خلف الاحمر أروى الناس للشعر وأعلمهم بجيده . وبالجملة العرب أحفظ الناس . ولا يكاد يمترى فى ذلك الا من عدم الاحساس . حتى ان فى كتاب الوشى المرقوم ان الهمدانى ادعى انه لم يصل الى أحد من أخبار العرب والعجم الا بالعرب وبين ذلك على أتم وجه وأثبته ثم قال والعرب أصحاب حفظ ورواية . وفى مقدمة أقوم المسالك نقلا عن تاريخ دردى وزير المعارف العمومية بفرنسا ان الآداب كانت قبل انتشار العرب من جزيرتهم متأصلة فيهم مؤداة بلغتين الحميرية فى اليمن . والقرشية فى الحجاز . وبالآخرة جاء القرآن . ولا يخفى

عليك ان الذى يقابل الحميرية هو المضرية . وان وقع الاجماع فى القراءة على خصوص القرشية . ولذلك اشتهرت واستمر خلوصها الى وقتنا هذا باستمرار كتب العلم والديانة وما دخلت العجمة فى اللسان الا بدخول الامم فى الاسلام . وتطاول السنين . وللغة المذكورة من الاتساع وسعة المجال ما لا يخفى على مثافنها لا سيما فى الاشياء التى بها قوام المعيشة فى البادية أو تتكرر رؤيتهم لها أو تكثر حاجتهم اليها فقد يكون للشئ الواحد عدة أسماء باعتبار تعدد صفاته وأحواله . وبكثرة الترادف عندهم اتسعت لهم دوائر الآداب الشعرية . اذ يقال ان للعسل عندهم ثمانين اسما وللثعبان مائتين وللاسد خمسمائة . وللجمل ألفاً . وكذا السيف . وللداهية نحو أربعة آلاف اسم . ولا جرم ان استيعاب مثل هذه الاسماء يستدعى حافظة قوية . وللعرب من قوة الحافظة . وحدة الفكر ما لا يسع أحداً انكاره .

فمن مشاهيرهم حماد الراوية الذى ذكر يوماً للخليفة الوليد انه ينشد له فى الحال مائة قصيدة والقصيدة من عشرين الى مائة بيت فتعب المستمع قبل المنشد ، انتهى نقل ما هو المقصود مما اعترف به هذا الفاضل مع كونه من صميم أهل أوربا مما للعرب من قوة الحافظة التى لم تكن لغيرهم من الامم . وانما يعرف ذا الفضل ذووه . والحق يعلو ولا يعلى عليه . فلذلك اكتفينا فى هذا الباب على هذا المقدار .

وأما كون العرب أقدر على البيان من غيرهم

فلأن لسانهم أتم الالسنة بياناً وتمييزاً للمعانى جمعاً وفرقا يجمع المعانى الكثيرة فى اللفظ القليل اذا شاء المتكلم الجمع . ثم يميز بين كل شيئين مشتبهين بلفظ آخر مميز مختصر . كما تجده من لغتهم فى جنس الحيوان . فانهم مثلا يعبرون عن القدر المشترك بين الحيوان بعبارات جامعة . ثم يميزون بين أنواعه فى أسماء كل أمر من أموره من الاصوات والاولاد والمساكن والاظفار الى غير ذلك من خصائص اللسان العربي التى لا يستراب فيها . وقد افردها ائمة اللغة بكتب معتبرة . مطولة ومختصرة . مع ما اشتملت عليه هذه اللغة الجليلة من المزايا التى لم توجد فى غيرها من لغات الامم . انظر الى المفرد والجمع واسباب اختلاف العلامات الدالة على الجمع واختصاص كل محل بعلامته ووقوع المفرد موقع الجمع وعكسه . واين يحسن مراعاة الاصل واين يحسن العدول عنه . وهذا فصل نافع جداً يطلعك على سر هذه اللغة العظيمة القدر المفضلة على سائر لغات الامم . وذلك أن الاصل هو المعنى المفردوان يكون اللفظ الدال عليه مفرداً لأن اللفظ قالب المعنى ولباسه يحتذى حذوه والمناسبة الحقيقية ثابتة بين اللفظ والمعنى طولاً وقصراً وخفة وثقلا وكثرة وقلة وحركة وسكونا وشدة ولينا . فان كان المعنى مفرداً افردوا لفظه . وان كان مركباً ركبوا

اللفظ . وان كان طويلا طوله كالعنطنط والعشنق للطويل .
فانظر الى طول هذا اللفظ لطول معناه . وانظر الى لفظ بحتر وما
فيه من الضم والاجتماع لما كان مسماه القصير المجتمع الخلق .
وكذلك لفظ الحديد والحجر والشدة والقوة ونحوها تجد فى ألفاظها
ما يناسب مسمياتها . وكذلك لفظى الحركة والسكون مناسبتهما
لمسميهما معلومة بالحس . وكذلك لفظ الدوران والثوران
والغليان وبابه فى لفظهما من تتابع الحركة ما يدل على تتابع حركة
مسماها . وكذلك الدخال والخراج والضراب والافاك فى تكرر
الحرف المضاعف منها ما يدل على تكرر المعنى . وكذلك الغضبان
والظمآن والحيران وبابه مما صيغ على هذا البناء الذى يتسع النطق
به ويمتلئ الفم بلفظه لامتلاء حامله من هذه المعاني فكان الغضبان
هو الممتلئ غضباً الذى قد اتسع غضبه حتى ملاء قلبه وجوارحه .
وكذلك بقيتها ولا يتسع المقام لبسط هذا فانه يطول ويدق حتى
يكسع عنه أكثر الافهام وتنبو عنه لطافته . لانه ينشأ من جوهر
الحرف تارة ومن صفته ومن اقترانه بما يناسبه ومن تكرره ومن
حركته وسكونه ومن تقديمه وتأخيره ومن اثباته وحذفه ومن
قلبه واعلاله . الى غير ذلك من الموازنة بين الحركات وتعديل
الحروف وتوخى المشاكلة والمخالفة والخفة والثقل والفصل
والوصل . وهذا باب يقوم من يتبعه بسفر ضخم . ولنذكر منه
مسئلة واحدة وهى اللفظ فى افراده وتغييره عند زيادة معناه

بالتثنية والجمع دون سائر تغيراته . فنقول لما كان المفرد هو الاصل والتثنية والجمع تابعان له جعل لهما فى الاسم علامة تدل عليهما وجعلت آخره قضاء لحق الاصالة فيه والتبعية فيهما والفرعية فالتزموا هذا فى التثنية ولم ينخرم عليهم . وأما الجمع فانهم ذهبوا به كل مذهب وصرفوه كل مصرف فمرة جعلوه على حد التثنية وهو قياس الباب كالتثنية والنسب والتأنيث وغيرها . وتارة اجتلبوا له علامة فى وسطه كالالف فى جعافر والياء فى عبيد والواو فى فلوس . وتارة جعلوا اختصار بعض حروفه واسقاطها علامة عليه نحو عنكبوت وعناكب فانه لما ثقل عليهم المفرد وطالت حروفه وازداد ثقلا بالجمع خففوه بحذف بعض حروفه لئلا يجمعوا بين ثقلين . ولا يناقض هذا ما أصلوه من طول اللفظ لطول المعنى وقصره لقصره فان هذا باب آخر من المعادلة والموازنة عارض ذلك الاصل ومنع من طرده . ومنه جمعهم فعيل وفعول وفعال على فعل كرغيف وعمود وقذال على رغف وعمد وقذل لثقل المفرد بالمدة . فان كان فى واحدة تاء التأنيث فانها تحذف فى الجمع فكرهوا أن يحذفوا المدة فيجمعوا عليه بين نقصين فقلبوا المدة . ولم يحذفوها كرسالة ورسائل وصحيفة وصحائف فجبروا النقص بالفرق لا انهم تناقضوا وتارة يقتصرون على تغيير بعض حركاته فيجعلونها علامة لجمعه كفلك وفلك وعبد وعبد . وتارة يجتلبون له لفظاً مستقلا من غير لفظ واحده كخيل

وانام وقوم ورهط ونحوه . وتارة يجعلون العلامة فى التقدير والنية لا فى اللفظ كفلك للواحد والجمع فان ضمة الواحد فى النية كضمة قفل وضمة الجمع كضمة رسل وكذلك هجان ودلاص واسمال واعشار مع ان غالب هذا الباب انما يأتي فى الصفات لحصول التميز والعلامة بموصوفاتها فلا يقع لبس ولا يكاد يجيء فى غير الصفات الا نادراً جداً . ومع هذا فلا بد أن يكون لمفرده لفظ يغاير جمعه ويكون فيه لغتان لانهم علموا انه يثقل عليهم أما فى الجر والنصب فلتوالى الكسرات . وأما فى الرفع فلثقل الخروج من الكسرة الى الضمة فعدلوا الى جمع تكسيره ولا يرد هذا عليهم فى راحمين وراحمون لفصل الألف الساكنة ومنعها من توالى الحركات فهو كمسلمين وقائمين . وكذلك عدلوا عن جمع فعل المضاعف من صفات العقلاء كفظ وبر فلم يجمعوه جمع سلامة . ولم يقولوا برون وفظون لئلا يشتبه بكلوب وسفود لانه بزنته فكسروه وقالوا أبرار فلما جاؤا الى غير المضاعف كصعب جمعوه جمع تصحيح ولم يخافوا التباساً اذ ليس فى الكلام فعلول وصعفوق نادر . فتأمل هذا التفريق . وهذا التصور الدال على ان أذهان العرب قد فاقت أذهان الامم كما فاقت لغتهم لغاتهم . والكلام فى هذا المقام واسع جداً فاين لغير لغة العرب من هذه الاسرار . والفرق واضح بين الليل والنهار .

وأما ما اشتمل عليه كلام العرب وتراكيبهم . وما حازته

من فنون البراعة أساليبهم فقد تكفل ببسطه كتب المعانى والبيان . وما ألف في بيان أعجاز القرآن . وقد سأل أبو اسحق المتفلسف الكندى أبا العباس المبرد . فقال اني أجد فى كلام العرب حشوا يقولون عبدالله قائم . ثم يقولون ان عبدالله قائم . ثم يقولون ان عبد الله لقائم . والمعنى واحد . فاجابه أبو العباس ان المعانى مختلفة فقولهم عبد الله قائم اخبار عن قيامه . وقولهم ان عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل . وقولهم ان عبد الله لقائم . جواب عن انكار منكر قيامه . فانظر الى تفاوت هذه المعانى مع تغيير يسير في اللفظ . وأما ما فصح من لغاتهم . وما ملح من بلاغاتهم . وما سمع من الاعراب فى بواديها . ومن خطباء الحلل فى نواديها . ومن قراضبة نجد فى أكلائها ومراتعها . ومن سماسرة تهامة فى اسواقها ومجامعها . وما تراجزت به السقاة على أفواه قلبها . وتساجعت به الرعاة على شفاه علبها . وما تقارضته شعرآء قيس وتميم فى ساعات المماتنة . وتزاملت به سفرآء ثقيف وهذيل فى أيام المفاتنة . فذاك الذى تنفد عند ذكره المحابر . ولا تستوعب محاسنه صحائف الدفاتر . وهم الاحرياء بذلك - والاحقاء بماهنالك . أليس قرى الاضياف سجيتهم . ونحر العشار للناس دأبهم وهجيراهم . لا مزقت ايدى الادوار لهم اديما ولا أباحت لهم حريما . أفتراهم يحسنون قرى الاشباح فيخالفون فيه بين لون ولون وطعم وطعم ولا يحسنون قرى الارواح فلا يخالفون

فيه بين أسلوب واسلوب وايراد وايراد . فان الكلام المفيد عند الانسان بالمعنى لا بالصورة اشهى غذاء لروحه . واطيب قرى لها من غبوقه وصبوحه

وقد سمعت بعض من لاخلاق له من الناس انه ادعى ان لغات الافرنج اليوم أوسع من لغة العرب بناء على ما حدث فيها من ألفاظ وضعوها لمعانى لم تكن فى القرون الخالية . والازمنة الماضية . فضلا عن أن تعرفه العرب فتفوه به . أو تتخيله فتنطق به . ولا يخفاك ان هذا كلام يشعر بعدم وقوف قائله على منشأ السعة وانه لم يخض بحار فنون اللغة حتى يعلم ان المزية من أين حصلت . واما ماذكر من ان مفردات العربية غير تامة بالنظر الى ما استحدث بعد العرب من الفنون والصنائع مما لم يكن يخطر ببال الاولين فهو غير شين على العربية . اذ لا يسوغ لواضع اللغة أن يضع اسماء لمسميات غير موجودة وانما الشين علينا الآن فى أن نستعير هذه الاسماء من اللغات الاجنبية مع قدرتنا على صوغها من لغتنا . على ان أكثر هذه الاسماء هو من قبيل اسم المكان أو الآلة وصوغ اسم المكان والآلة فى العربية مطرد من كل فعل ثلاثي فما الحاجة الى أن نقول فبريقة أو كرخانة . ولا نقول معمل أو مصنع أو أن نقول بيمارستان ولا نقول مستشفى . أو نقول ديوان ولا نقول مأمر . أو نقول اسطرلاب . ولا نقول منظر . والعرب اليوم بخسوا اللغة حقها فانهم عدلوا عنها الى اللغات

العجمية من غير سبب موجب . فان من يستعير ثوباً من آخر وهو مستغن عنه يحكم عليه بالزيغ والبطر . واذا اعترض أحد بأن دخول الألفاظ العجمية فى العربية غير منكر . وان كل لغة من اللغات لابد أن يكون فيها دخيل . فاللغة هى بمنزلة المتكلمين بها فلا يمكن لأمة أن تعيش وحدها من دون أن تختلط بأمة أخرى . فان الانسان مدنى بالطبع أى محتاج فى تمدنه الى الاختلاط مع أبناء جنسه . والجواب ان هذا الدخيل انما يغضى عنه اذا لم يوجد فى أصل اللغة ما يرادفه . أو لم يمكن صوغ مثله فاما مع وجود هذا الامكان فالاغضاء عنه بخس لحق اللغة لا محالة . والا لزم المستعربين ان ينطقوا بالپاء أو الكاف الفارسيتين . أو ان يقدموا المضاف اليه على المضاف . وهناك وجه آخر فى العربية لصوغ ألفاظ تسد مسد الألفاظ العجمية التى اضطررنا اليها وهو باب النحت . قال ابن فارس فى فقه اللغة : العرب تنحت من كلمتين كلمة واحدة وهو جنس من الاختصار . وذلك كقولهم رجل عبشمي منسوب الى اسمين . وهما عبد شمس . وأنشد الخليل :

أقول لها ودمع العين جار ألم يحزنك حيعلة المنادى

من قولهم حى على كذا . وهذا مذهبنا فى ان الاشياء الزائدة على ثلاثة أحرف أكثرها منحوت مثل قول العرب للرجل

الشديد ضبطر من ضبط وضبر . وفى قولهم صهصلق انه من صهل وصلق . وفى الصلدم انه من الصلد والصدم الى آخر ما قال مما يدل على ان اللغة العربية أحسن اللغات صيغاً وأساليب وأتمها وأكملها نسقاً وتأليفاً مع تسويغ استعمال النحت عند اقتضاء الضرورة .

ولو ان العرب الأولين شاهدوا البواخر وسكك الحديد وأسلاك التلغراف والغاز والبوستة ونحو ذلك مما اخترعه الافرنج لوضعوا له أسماء خاصة ناصة فهم على هذا غير ملومين . وانما اللوم علينا حالة كوننا قد ورثنا لغتهم وشاهدنا هذه الأمور بأعيننا ولم نتنبه لوضع أسماء لها على النسق الذي ألفته العرب وهو الاختصار والايجاز .

وأما العمل فان مبناه على الاخلاق وهى الغرائز المخلوقة فى النفس وغرائز العرب أطوع للخير من غيرهم ، فهم أقرب للسخاء والحلم والشجاعة والوفاء والغيرة . وغير ذلك من الاخلاق المحمودة .

أما كون العرب أقرب للسخاء من غيرهم

فذاك الذى لا يحتاج الى بيان . ولا يعوز الى اقامة دليل ولا برهان قد شهد لهم به الاوداء والاعداء . واعترف لهم الاقربون

والبعداء . اذا ألم بهم ضيف حكموه على أنفسهم . واستهانوا له ما وجدوه من نفيسهم . وهذا شعرهم ينطق بما جبلوا عليه ويعرب عما ألفوه وجنحوا اليه . وهو مما لا يمكن استيعابه في هذا المقام . ومن أين لنا الاحاطة بالبحر المحيط وقد ضاقت عنه دوائر الافهام . غير ان المعسور لا يسقط بالميسور . فلابد من تحلية عاطل جيد هذا الكتاب ببعض من عقود نظام در ذلك العباب .

قال عتيبة بن بجير المازنى من بنى الحارث بن كعب :

ومستنبح بات الصدى يستتيهه الى كل صوت فهو فى الرحل جانح
فقلت لأهلى ما بغام مطية وسار اضافته الكلاب النوابح
فقالوا غريب طارق طوحت به
متون الفيافى والخطوب الطوارح
فقمت ولم أجثم مكانى ولم تقم
مع النفس علات البخيل الفواضح
وناديت شبلا فاستجاب وربما ضمنا قرى عشر لمن لا نصافح
فقام أبو ضيف كريم كأنه وقد جدمن فرط الفكاهة مازح
الى جذم مال قد نهكنا سوامه واعراضنا فيه بواق صحائح
جعلناه دون الذم حتى كأنه اذا عد مال المكثرين المنائح
لنا حمد أرباب المئين ولا يرى الى بيتنا مال مع الليل رائح

وقال مرة بن محكان التميمي :

يا ربة البيت قومى غير صاغرة ... ضمى اليك رحال القوم والقربا
فى ليلة من جمادى ذات أندية ... لا يبصر الكلب من ظلمائها الطنبا
لا ينبح الكلب فيها غير واحدة ... حتى يلف على خيشومه الذنبا
ماذا ترين اندنيهم لا رحلنا ... فى جانب البيت أم نبنى لهم قببا
لمرمل الزاد معنى بحاجته ... من كان يكره ذماً أو يتقى حسبا
وقمت مستبطنا سيفى فاعرض لى ... مثل المجادل كوم تركت عصبا
فصادف السيف منها ساق متلية ... جلس فصادف منه ساقها العطبا
زيافة بنت زياف مذكرة ... لما نعوها لراعى سرحنا انتحبا
أطعمت جازرنا أعلى سناسنها ... فصار جزارنا من فوقها قتبا
ينشنش اللحم عنها وهى باركة ... كما تنشنش كفا قاتل سلبا
وقلت لما غدوا أوصى قعيدتنا ... غدى بنيك فلن تلقيهم حقبا
ادعى أباهم ولم أقرف بأمهم ... وقد عمرت ولم أعرف لهم نسبا
أنا ابن محكان اخوالى بنو مطر ... انمى اليهم وكانوا معشراً نجبا

وقال آخر :

ومستنبح قال الصدى مثل قوله ... حظأت له ناراً لها حطب جزل
فقمت اليه مسرعا فغنمته ... مخافة قومى أن يفوزوا به قبل
فأوسعنى حمداً وأوسعته قرى
وأرخص بحمد كان كاسبه الاكل

وقال آخر :

تركت ضأنى تود الذئب راعيها ... وانها لا تراني آخر الابد

الذئب يطرقها فى الدهر واحدة ... وكل يوم ترانى مدية بيدى

وقال آخر :

وما أنا بالساعى الى أم عاصم ... لأضربها انى اذاً لجهول

لك البيت الا فينة تحسنينها ... اذا حان من ضيف على نزول

وقال بعض بنى أسد :

وسوداء لا تكسى الرقاع نبيلة ... لها عند قرات العشيات ازمل

اذا ما قريناها قراها تضمنت ... قرى من عرانا أو تزيد فتفضل

وقال آخر وهو عروة بن الورد :

سلى الطارق المعتريا أم مالك ... اذا ما أتانى بين قدرى ومجزري

أيسفر وجهي انه أول القرى ... وابذل معروفى له دون منكرى

وقال آخر :

وانا لمشاؤن بين رحالنا ... الى الضيف منا لاحف ومنيم

فذو الحلم منا جاهل دون ضيفه ... وذو الجهل منا عن أذاه حليم

وقال ابن هرمة :

اغشى الطريق بقبتى ورواقها ... واحل فى نشز الربى فأقيم

ان امرأ جعل الطريق لبيته ... طنباً وانكر حقه للئيم

وقال آخر :

ومستنبح تستكشط الريح ثوبه ... ليسقط عنه وهو بالثوب معصم

عوى فى سواد الليل بعد اعتسافه ... لينبح كلباً أو ليفزع نوم

فجاوبه مستسمع الصوت للقرى ... له عند اتيان المهبين مطعم

يكادإذا ماأبصر الضيف مقبلا   يكلمه من حبه وهو أعجم

وقال سالم بن قحفان :

لا تعذليني في العطاء ويسري   لكل بعير جاء طالبه حبلا

فأني لا تبكي على افالها   اذاشبعت من روض أوطانها بقلا

فلم أر مثل الابل مالا لمقتن   ولا مثل أيام الحقوق لها سبلا

ومن خبر هذه الأبيات : ان سالم بن قحفان أتاه أخو امرأته فأعطاه بعيراً من ابله وقال لامرأته هاتي حبلا يقرن به ماأعطيناه الى بعيره . ثم أعطاه بعيراً آخر . وقال هاتي حبلا . ثم أعطاه ثالثاً فقال هاتي حبلا . فقالت ما بقي عندي حبل . فقال علي الجمال . وعليك الحبال . فرمت اليه خمارها . وقالت اجعله حبلا لبعضها . فأنشأ يقول :

لا تعذليني في العطاء الابيات .

فأجابته امرأته :

حلفت يميناً يا ابن قحفان بالذي

تكفل بالارزاق في السهل والجبل

تزال حبال محصدات أعدها   لها ما مشى منها على خفه جمل

فاعط ولا تبخل لمن جاء طالباً

فعندي لها خطم وقد زاحت العلل

وقال آخر .

ألا ترين وقد قطعتني عذلا   ماذامن البعد بين البخل والجود

الا يكن ورقى غصا أراح به للمعتفين فاني لين العود

وقال قيس بن عاصم المنقرى :

انى امرؤ لا يعترى خلقى دنس يفنده ولا أفن

من منقر فى بيت مكرمة والغصن ينبت حوله الغصن

خطباء حين يقول قائلهم بين الوجوه مصاقع لسن

لا يفطنون لعيب جارهم وهم لحفظ جواره فطن

وقال ابن عنقاء الفزارى :

رأنى على مابي عميلة فاشتكى الى ماله حالى أسر كما جهر

دعاني فأساني ولو ضن لم الم على حين لا بدو يرجى ولا حضر

غلام رماه الله بالخير يافعاً له سيمياء لا تشق على البصر

كأن الثريا علقت فى جبينه

وفى خده الشعرى وفى وجهه القمر

اذا قيلت العوراء اغضى كأنه ذليل بلا ذل ولو شاء لا نتصر

ولما رأى المجد استعيرت ثيابه تردى رداء واسع الذيل وائتزر

فقلت له خيراً وأثنيت فعله

وأوفاك ما أسديت من ذم أو شكر

قال أبو رياش مر عميلة الفزارى على ابن عنقاء الفزارى وهو يحتش لغنمه . وقيل يحفر عن البقل ويأكله . فقال يا ابن عنقاء ما أصارك الى هذه الحال ؟ فقال له ابن عنقاء : تغير الزمان وتمذر الاخوان . وضن أمثالك بما معهم ، فقال عميلة لا جرم

والله لا تطلع الشمس غداً الا وأنت كأحدنا ، ثم انصرف كل واحد منهما الى أهله . وكان عميلة غلاماً حين بقل وجهه ، فبات ابن عنقاء يتململ على فراشه لا يأخذه النوم اشتغالا بما قال له عميلة . فقالت له امرأته ما شأنك ؟ فأخبرها الخبر فقالت : قد خرفت وذهب عقلك حتى تعلق نفسك بكلام غلام حديث السن لا يحفل بما يجرى على لسانه . ويحكى انه لما أصبح قالت له ابنته لو أتيت عميلة فقد وعدك أن يقاسمك ماله . فقال يا بنية اذالفتى كان سكران ولا أدرى لعله لم يعقل ما قاله ، فبينا هى تراجعه الكلام اذ أقبل عليهم كالليل من ابل وغنم وخيل . واذاعميلة قد وقف عليه . فقال يا ابن عنقاء اخرج الي نخرج اليه فقال هذا مالى أجمع هلم نقتسمه فقاسمه اياه بعيراً وبعيراً وفرساً وفرساً وشاة وشاة وجارية وجارية وغلاماً وغلاما . ثم انصرف فقال ابن عنقاء الأبيات :

وقال آخر :

سأشكر عمرا ان تراخت منيتى أيادى لم تمنن وان هى جلت

فتى غير محجوب الغنى عن صديقه

ولا مظهر الشكوى اذا النعل زلت

رأى خلتى من حيث يخفى مكانها فكانت قذى عينيه حتى تجلت

وقال رجل من بهراء اسمه فدكى :

ان أجز علقمة بن سيف سعيه لا أجزه ببلاء يوم واحد

لاحبنى حب الصبى ورمنى ... رم الهدى الى الغنى الواجد

وأجابنى يوم الصراخ بهجمة ... مائة تشق على عصى الذائد

ولقد نضحت مليلتى فتميثت ... عن آل عتاب بماء بارد

ومن خبر فدكى : انه كان مجاوراً فى بنى تغلب لبنى عتاب بن سعد بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب فأقام فيهم مدة ثم ان علقمة بن سيف العتابى غزا فى بعض مغازيه فأغار حنش بن معبد أحد بنى ثعلبة بن بكر بن حبيب فأخذ ابل البهرانى فكان اذا ورد بنو عتاب نعمهم حوض حوضاً واستقى فيه حتى يملأه ثم يغمز فيه ذكره ويقول اشرب فمالى مال غيرك واذا حضر مجالسهم أنشأ يقول :

هل أنا الا معزب لياليا ... لياليا من رجب ثمانيا

ثم تجيء جيرتى بماليا

فلما قدم عاقمة بن سيف أخبروه شأن البهراني . فقال ان حنش بن معبد لى صديق وان وفدت عليه رد على الابل . فوفد عليه فى جماعة من بنى تغلب . فيهم رجل من بنى الأوس بن تغلب . وهم اشأم حى فى العرب بسبب رجل منهم وقعت حرب البسوس ، وبسبب رجل آخر منهم وقعت حرب ابنى بغيض ذبيان وعبس فلما قدموا على حنش بن معبد فرح بهم وبنى عليهم قبة وأكرمهم ووعدهم أن يرد على علقمة بن سيف الابل اذا أصبحوا فلما كان الليل استسمع عليهم حنش بن معبد وهم

يتحدثون ويذكرون ما صنع بهم حنش ووعده اياهم برد الابل وسمع الأومى وهو يقول ألم أحدثكم انها كالعصبة ازدردتها اللبوة ان لا تقئها نخراها فأغضب ذلك حنشاً وحلف أن لا يرد منها بعيراً فلما رجعوا أخرج علقمة بن سيف من ماله مائة بعير فأعطاها البهرانى وقال هذا بدل ما أخذ منك . فقال البهراني : سأشكر عمراً الأبيات .

وقال الحسين بن مطير الاسدى فى بعض العرب :

له يوم بؤس فيه للناس ابؤس ويوم نعيم فيه للناس أنعم

فيمطر يوم الجود من كفه الندى

ويمطر يوم البأس من كفه الدم

ولو ان يوم البأس خلى عقابه

على الناس لم يصبح على الأرض مجرم

ولو ان يوم الجود خلى يمينه

على الناس لم يصبح على الارض معدم

وقال أبو الطمحان القين واسمه شرقي بن حنظلة :

اذا قيل أى الناس خير قبيلة واصبر يوماً لاتوارى كواكبه

فان بنى لام بن عمرو أرومة سمت فوق صعب لا تنال مراقبه

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

وقال آخر :

يا أيها المتمنى أن يكون فتى مثل ابن زيد لقد خلى لك السبلا

اعدد نظائر أخلاق عددن له　　هل سب من أحد أو سب اذ بخلا

ان تنفق المال أو تكلف مساعيه

يصعب عليك وتفعل دون ما فعلا

لو يبعث الناس أدناهم وأبعدهم

فى ساحة الارض حتى يحرثوا الابلا

كى يطلبوا فوق ظهر الارض لم يجدوا

مثل الذى غيبوا فى بطنه رجلا

وقال شقران مولى سلامان من قضاعة :

لو كنت مولى قيس عيلان لم تجد　　على لانسان من الناس درهما

ولكننى مولى قضاعة كلها　　فلست أبالى ان أدين وتغرما

أولئك قومى بارك الله فيهم　　على كل حال ما أعف وأكرما

ثقال الجفان والحلوم رحاهم　　رحا الماء يكتالون كيلا عذمذما

جفاة المحز لا يصيبون مفصلا　　ولا يأكلون اللحم الا تخذما

وقالت ليلى الاخيلية ويقال بل قالها أبوها :

نحن الاخايل لا يزال غلامنا　　حتى يدب على العصا مذكورا

تبكى السيوف اذا فقدن أكفنا　　جزعا وتعلمنا الرفاق بحورا

ولنحن أوثق فى صدور نسائكم　　منكم اذا بكر الصراخ بكورا

وقال عمرو بن الاطنابة أحد بنى الخزرج :

انى من القوم الذين اذا انتدوا　　بدؤا بحق الله ثم النائل

المانعين من الخنا جاراتهم　　والحاشدين على طعام النازل

والخالطين فقيرهم بغنيهم والباذلين عطائهم للسائل

الضاربين الكبش يبرق بيضه

ضرب المهجهج عن حياض الآبل

والقاتلين لدى الوغى أقرانهم ان المنية من وراء الوائل

والقائلون فلا يعاب كلامهم يوم المقامة بالقضاء الفاصل

خزر عيونهم الى أعدائهم يمشون مشي الأسد تحت الوابل

ليسوا بانكاس ولا ميل اذا ما الحرب شبت اشعلوا بالشاعل

وقال حجر بن خالد يمدح النعمان بن المنذر :

سمعت بفعل الفاعلين فلم أجد كمثل أبي قابوس حزما ونائلا

فساق الهي الغيث من كل بلدة اليك فاضحي حول بيتك نازلا

فأصبح منه كل واد حللته

من الارض مسفوح المذانب سائلا

متى تنع ينع الجود والباس والتقى

وتصبح قلوص الحرب جرباء حائلا

فلا ملك ما يدركنك سعيه ولا سوقة ما يمدحنك باطلا

وقال آخر :

ومستنبح بعد الهدوء دعوته بشقراء مثل الفجر ذاك وقودها

فقلت له أهلا وسهلا ومرحباً بموقد نار محمد من يرودها

نصبنا له جوفاء ذات ضبابة من الدهم مبطانا طويلا ركودها

فان شئت أثويناك في الحي مكرما وان شئت بلغناك ارضا تريدها

وقال آخر :

ومستنبح تهوى مساقط رأسه الى كل شخص فهو للسمع اصور

يصــفقه أنف من الريح بارد

ونكباء ليل من جمادى وصرصر

حبيب الى كلب الكريم مناخه

بغيض الى الكوماء والكلب أبصر

حضأت له نارى فأبصر ضوءها وما كاد لولا حضأة النار يبصر

دعته بغير اسم هلم الى القرى

فاسري يبوع الارض والنار تزهر

فلما أضاءت شخصه قلت مرحباً هلم وللصالين بالنار ابشروا

فجاء ومحمود القرى يستفزه اليها وداعى الليل بالصبح يصفر

تأخرت حتى لم تكد تصطفى القرى

على أهله والحق لا يتأخر

وقمت بنصل السيف والبرك هاجد

بهازره والموت بالسيف ينظر

فأغضضته الطولى سناما وخيرها بلاء وخير الخير ما يتخير

فاوفضن عنها وهى ترغو حشاشة بذى نفسها والسيف عريان أحمر

فباتت رحاب جونة من لحامها وفوها بما في جوفها يتغرغر

وقال آخر :

وما يك في من عيب فانى جبان الكلب مهزول الفصيل

وقال آخر :

سأقدح من قدري نصيباً لجارتي ... وان كان ما فيها كفافا على أهلي

اذا أنت لم تشرك رفيقك في الذي ... يكون قليلا لم تشاركه في الفضل

وقال عمرو بن الاهتم :

ذريني فان الشح يا ام هيثم ... لصالح أخلاق الرجال سروق

ذريني وحطي في هواي فانني ... على الحسب الزاكي الرفيع شفيق

ذريني فاني ذو فعال تهمني ... نوائب يغشى رزؤها وحقوق

وكل كريم يتقي الذم بالقرى ... وللحق بين الصالحين طريق

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ... ولكن أخلاق الرجال تضيق

وقال آخر :

أجلك قوم حين صرت الى الغنى ... وكل غنى في القلوب جليل

وليس الغنى الا غنى زين الفتى ... عشية يقرى أو غداة ينيل

وقال المثلم بن رياح المرى :

بكر العواذل بالسواد يلمنني ... جهلا يقلن ألا ترى ما تصنع

أفنيت مالك في السفاه وانما ... أمر السفاهة ما أمرنك اجمع

وقتود ناجية وضعت بقفرة ... والطير غاشية العوافى وقع

بمهند ذى حلية جردته ... يبرى الأصم من العظام ويقطع

لتنوب نائبة لتعلم انني ... ممن يغر على الثناء فيخدع

انى مقسم ما ملكت فجاعل ... أجراً لآخرة ودنيا تنفع

وقال ارطاة بن سهية المري :

فلو ان ما نعطي من المال نبتغي به الحمد يعطى مثله زاخر البحر

لظلت قراقير صياماً بظاهر

من الضحل كانت قبل فى لجج خضر

ولا نكسر العظم الصحيح تعززاً ونغنى عن المولى ونجبر ذا الكسر

غلبنا بني حواء مجداً وسؤدداً ولكننا لم نستطع غلب الدهر

وقال حجر بن حية العبسي :

ولاأدوم قدرى بعد ما نضجت بخلا لتمنع ما فيها أثافيها

حتى تقسم شتى بين ما وسعت ولا يؤنب تحت الليل عافيها

لاأحرم الجارة الدنيا اذا اقتربت ولا أقوم بها فى الحى أخزيها

ولا أكلمها الا علانية ولا أخبرها الا أناديها

وقال المساور بن هند بن قيس بن زهير :

فدى لبنى هند غداة دعوتهم بجو وبال النفس والابوان

اذا جارة شلت لسعد بن مالك لها ابل شلت لها ابلان

اذا عقدت افناء سعد بن مالك لها ذمة عزت بكل مكان

اذا سئلوا ماليس بالحق فيهم أبى كل مجنى عليه وجانى

ودار حفاظ قد حللت مهانة بها نبيكم والضيف غير مهان

وقال آخر :

جزى الله خيراً غالباً من عشيرة اذا حدثان الدهر نابت نوائبه

فكم دافعوا من كربة قد تلاحمت علي وموج قد علتنى غواربه

اذا قلت عودوا عاد كل شمردل اشم من الفتيان جزل مواهبه
اذا أخذت بزل المخاض سلاحها تجرد فيها متلف المـال كاسبه

وقال آخر :

وليس فتى الفتيان من جل همه صبوح وان أمسى ففضل غبوق
ولـكن فتى الفتيان من راح أو غدا
لضر عدو أو لنفع صديق

وقال خراز بن عمرو من بنى عبد مناف :

لنـا ابل لم تهن ربهـا كرامتهـا والفتى ذاهب
هجان يكافأ منها الصديق ويدرك فيها المنى الراغب
ونطعن عنها نحور العدا ويشرب منابها الشارب
ونؤلفها فى السنين الـكاول اذا لم يجد مكسباً كاسب
ولم تك يوماً اذا روحت على الحى يلفى لها جادب
حبانا بهـا جدنا والاله وضرب لنا خذم صائب

وقال مضرس بن ربعى :

وانى لارعو الضيف بالضوء بعدما
كسا الارض نضاح الجنيد وجامده
لاكرمه ان الـكرامة حقه
ومثلان عندى قربه وتباعده
ابيت اعيشه السديف وانى بما نال حتى يدرك الحى حامده

وقال حماس بن ثامل :

ومستنبح فى لج ليل دعوته ... بمشبوبة فى رأس صمد مقابل
وقلت له اقبل فانك راشد ... وان على النار الندى وابن ثامل

وقال النمري ويقال انها لرجل من باهلة :

وداع دعا بعد الهدو كأنما ... يقاتل أهوال السرى وتقاتله
دعا بائساً شبه الجنون وما به ... جنون ولكن كيد أمر يحاوله
فلما سمعت الصوت ناديت نحوه ... بصوت كريم الجد حلو شمائله
فأبرزت نارى ثم أثقبت ضوءها
وأخرجت كلبي وهو فى البيت داخله .
فلما رآني كبر الله وحده ... وبشر قلباً كان جماً بلابله
فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا ... رشدت ولم أقعد اليه أسائله
وقمت الى برك هجان أعده ... لوجبة حق نازل أنا فاعله
بأبيض خطت نعله حيث أدركت ... من الارض لم تخطل على حمائله
فجال قليلا واتقانى بخيره ... سناما وأملاه من النى كاهله
بقرم هجان مصعب كان فحلها ... طويل القرى لم يعد ان شق بازله
فخر وظيف القرم فى نصف ساقه ... وذاك عقال لا ينشط عاقله
بذلك أوصانى أبي وبمثله ... كذلك أوصاه قديماً أوائله

انظر الى ما حوته هذه الابيات من شريف المحاسن وأعلى الصفات . وهكذا فليكن من رغب فى الحمد . وتصدى لنيل

السؤدد والمجـد . لا أخلى الله تعالى الأرض من أمثال هؤلاء الـكرام . ولازالوا بتحية زكية وسلام . وقال النابغة الذبياني :

له بفناء البيت سوداء فخمة تلقم أوصال الجزور العراعر
بقية قدر من قدور تورثت لآل الجلاح كابراً بعد كابر
تظل الاماء يبتدرن قديحها كما ابتدرت سعد مياه قراقر

وقال الفرزدق :

وداع بلحن الـكلب يدعو ودونه من الليل سجفا ظلمة وغيومها
دعا وهو يرجو أن ينبه اذ دعا فتى كابن ليلى حين غارت نجومها
بعثت له دهماء ليست بلقحـة تدر اذا ما هب نحسا عقيمهـا
كأن المحال الغر فى حجراتها عذارى بدت لما أصيب حميمها
غضوبا كحيزوم النعامة احمشت بأجواز خشب زال عنها هشيمها
محضرة لا يجعل الستر دونها اذا المرضع العوجاء جال بريمها

وقال شريح بن الأحوص :

ومستنبح يبغى المبيت ودونه من الليل سجفا ظلمة وستورها
رفعت له ناري فلما اهتدى بها زجرت كلابى ان يهر عقورها
فبات وان أسرى من الليل عقبة بليلة صدق غاب عنها شرورها

وقال مسكين الدارمى :

كأن قدور قومي كل يوم قباب الترك ملبسة الجلال
كأن الموقدين بها جمـال طلاها الزفت والقطران طالى
بأيديهم مغارف من حديد أشبهها مقـيرة الدوالى

وقال العكلي :

أعاذل بكيني لأضياف ليلة ... نزور القرى أمست بليلا شمالها

أعامر مهلا لا تلمني ولا تكن ... خفيا اذا الخيرات عدت رجالها

أرى ابلى تجزى مجازي هجمة ... كثير وان كانت قليلا افالها

مثا كيل ما تنفك ارحل جمة ... ترد عليهم نوقها وجمالها

وقال جابر بن حيان :

فان يقتسم مالى بنى واخوتي

فلن يقسموا خلق الكريم ولا فعلى

أهين لهم مالى وأعلم أنى ... سأورثه الأحياء سيرة من قبلى

وما وجد الأضياف فيما ينوبهم ... لهم عند علات الزمان أبا مثلى

وقال عتبة بن بجير :

لحافى لحاف الضيف والبيت بيته ... ولم يلهنى عنه غزال مقنع

أحدثه أن الحديث من القرى ... وتعلم نفسى انه سوف يهجع

وقال المرار الفقعسى :

آليت لا أخفى اذا الليل جننى ... سنى النار عن سار ولا متنور

فياموقدى نار ارفعاها لعلها ... تضيء لسار آخر الليل مقتر

وماذا علينا أن يواجه نارنا ... كريم المحيا شاحب المتحسر

اذا قال من أنتم ليعرف أهلها ... رفعت له باسمى ولم أتنكر

فبتنا بخير من كرامة ضيفنا ... وبتنا نهيء طعمه غير ميسر

وقال يزيد بن الطثرية :

اذا أرسلونى عند تقدير حاجة　　أمارس فيها كنت نعم الممارس

ونقعى نفع الموسرين وانما　　سوامى سوام المقترين المفالس

وقال عروة بن الورد العبسى :

أرى أم حسان الغداة تلومنى

تخوفنى الأعداء والنفس أخوف

لعل الذى خوفتنا من امامنا　　يصادفه فى أهله المتخلف

اذا قلت قدجاء الغنى حال دونه　　أبو صبية يشكو المفاقر أعجف

له خلة لا يدخل الحق دونها　　كريم أصابته حوادث تجرف

وقال الأقرع بن معاذ :

ان لنا صرمة تلفى مخيسة　　فيها معاد وفى ارها بها كرم

تسلف الجار شربا وهى حائمة　　ولا يبيت على أعناقها قسم

ولا نسفه عندالحوض عطشتها　　أحلامنا وشريب السوء يحتدم

وقال يزيد بن الجهم الهلالى ويروى لحميد بن ثور :

لقد أمرت بالبخل أم محمد　　فقلت لها حثى على البخل أحمدا

فانى امرؤ عودت نفسى عادة　　وكل امرئ جار على ما تعودا

أحين بدا فى الرأس شيب وأقبلت　　الي بنو عيلان مثنى وموحدا

رجوت سقاطي واعتلالى ونبوتى

ورائك عنى طالق وارحلى غدا

وقال آخر :

انى وان لم ينل مالى مدى خلقى　　فياض ماملكت كفاى من مال

لاأحبس المال الا ريث أتلفه　　ولا تغيرني حال الى حال

وقال سوارة اليربوعى :

الا بكرت مى على تلومنى　　تقول الا أهلكت من أنت عائله

ذريى فان البخل لا يخلد الفتى　　ولا يهلك المعروف من هو فاعله

وقال المقنع الكندى :

نزل المشيب فأين تذهب بعده　　وقد ارعويت وحان منك رحيل

كان الشباب خفيفة أيامه　　والشيب يحمله على ثقيل

يس العطاء من الفضول سماحة　　حتى تجود وما لديك قليل

الى غير ذلك من الشعر الذى هو على هذا المسلك وكله يدل على ما كان متنافساً فيه بين العرب من الصفات المحمودة . وعلى ما كانوا عليه من الكرم والسخاء والسماحة . وقد ألف بعض المتقدمين من أئمة أهل اللغة والأدب كتابا فيما ورد من أخبار ضيوف العرب. وما اتفق فى ذلك من النوادر والقصص الغريبة والشعر المنتخب . والذى كتبته من الشعر كان من رواية أبي تمام فى حماسته . ولذلك أعرضت عن شرحه . فان شروح الكتاب كثيرة مشهورة فمن أشكل عليه شيء فليراجعها

ومما يدلك على مزيد سخاء العرب انه كانت لهم نار تسمى نار القرى وهى نار الضيافة توقد لاستدلال الاضياف بها على المنزل

وكانوا يوقدونها على الأماكن المرتفعة لتكون أشهر . وربما أوقدوها بالمندلى الرطب وهو عطر ينسب الى مندل . وهى بلدة من بلاد الهند ونحوه مما يتبخر به ليهتدى اليها العميان . وهذه النار عندهم أجل سائر نيرانهم التى سنفصلها على أتم وجه انشاء الله تعالى ولم تزل مذكورة على ألسنة شعرائهم . قال أبو زياد الاعرابى الكلابى يصف بعض أجواد العرب :

له نار تشب على يفاع   اذا النيران ألبست القناعا
ولم يك أكثر الفتيان مالا   ولكن كان أرحبهم ذراعا

وقال آخر :

انى اذا خفيت نار لمرملة   ألقى بأرفع تل رافعاً نارى
ذاك وانى على جارى لذوحدب   أحنو عليه كما يحنى على الجار

وانهم كانوا يقتنون الكلاب لأمور منها انها تدل الاضياف على منازلهم بنباحها . وكانوا يمدحونها على ذلك . قال قائل منهم فى كلب له :

أوصيك خيراً به فان له   خلائقاً لا أزال أحمدها
يدل ضيفى على فى غسق الليل   اذا النار نام موقدها

وكان لعبهم بالميسر منبعثاً عن السخاء وكرم الطبع فان أهل الثروة والاجواد منهم فى شدة البرد وكلب الزمان ييسرون أى يتقامرون بالقداح وهى عشرة على جزور يجزؤنها ثمانية وعشرين جزءاً . وسيجىء ان شاء الله تعالى كيفية عملهم فى ذلك عند

الكلام على أعمالهم التى جبها الاسلام . فاذا أقر أحدهم جعل أجزاء الجزور لذوى الحاجة وأهل المسكنة واستراش الناس وعاشوا . وكانت العرب تمدح بأخذ القداح وتعيب من لا ييسر وتسميه البرم .

قال متمم بن نويرة يرثى أخاه مالكا :

ولا برماً تهدى النساء لعرسه اذا القشع من برد الشتاء تقعقعا

وقال العرندس في قوم من العرب :

هينون لينون ايسار ذوو كرم سواس مكرمة أبناء ايسار

أن يسألوا الحق يعطوه وان خبروا
فى الجهد أدرك منهم طيب اخبار

وان توددتهم لانوا وان شهموا كشفت اذمار شر غير أشرار

فيهم ومنهم يعد المجد متلدا ولا يعد نثا خزى ولا عار

لا ينطقون عن الفحشاء ان نطقوا
ولا يمارون ان ماروا باكثار

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم
مثل النجوم التى يسري بها السارى

وقال لبيد بن مالك في معلقته :

وجزور ايسار دعوت لحتفها بمغالق متشابه أجسامها

ادعو بهن لعاقر أو مطفل بذلت لجيران الجميع لحامها

فالضيف والجار الجنيب كأنما هبطا تبالة مخصباً اهضامها

تهوى الى أطناب كل رزية   مثل البلية قالص اهـدامها
ويكللون اذا الرياح تناوحت   جلحا تمد شوارعا ايتامها

والشـعر فى ذلك كثير . ثم ان السخاء لا يتوقف على بذل المال فانه هيئة للانسان داعية الى بذل القنيات حصل معه البذل أو لم يحصل . ويقابله الشح والجود بذل المقتنى ويقابله البخل . هذا هو الأصل وان كان كل واحد منهما قد يستعمل فى موضع الآخر . ويدلك على هذا الفرق انهم جعلوا الفاعـل من السخاء والشح على بناء الأفعال الغريزية . فقالواشحيح وسخى . وقالوا جواد وباخل . وأما قولهم بخيل فمصروف عن لفظ الفاعل للمبالغة كقولهم راحم ورحيم . ولكون السخاء غريزة لم يوصـف البارى تعالى به .

———

أجواد العرب

من اشتهر بالجود والسخاء وضرب بهم المثل فى الكرم من عرب الجاهلية، منهم :

حاتم الطائى

قالوا فى المثل : أجود من حاتم يريدون به حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن امرىء القيس بن عدى بن أحزم الطائى الجواد المشهور واحد شعراء الجاهلية ويكنى أبا عدى وأبا سفانة « بفتح السين وتشديد الفاء » وابنه أدرك الاسلام وأسلم . أخرج أحمد فى مسنده عن ابنه عدي قال قلت يا رسول الله ان أبي كان يصل الرحم ويفعل كذا وكذا قال ان أباك أراد أمراً فأدركه يعنى الذكر . وكانت سفانة بنته أتي بها الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقالت يا محمد هلك الوالد . وغاب الوافد . فان رأيت ان تخلى عنى ولا تشمت بي احياء العرب فان أبي سيد قومه كان يفك العاني ويحمي الذمار . ويفرج عن المكروب . ويطعم الطعام . ويفشى السلام . ولم يطلب اليه طالب قط حاجة فرده انا ابنة حاتم طي، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يا جارية هذه صفة المؤمن لوكان أبوك اسلاميا لترحمنا عليه خلوا عنها فان أباها كان يحب مكارم الأخلاق .

قال ابن الاعرابي : كان حاتم من شعراء الجاهلية . وكان جواداً يشبه جوده شعره . ويصدق قوله فعله . وكان حيثما نزل عرف منزله . وكان مظفراً اذا قاتل غلب . واذا غنم انهب . واذا ضرب بالقداح فاز . واذا سابق سبق . واذا أسر أطلق . وكان أقسم بالله لا يقتل واحد أمه . وكان اذا أهل رجب نحر فى كل يوم عشرة من الابل وأطعم الناس واجتمعوا عليه . وكان أول ما ظهر من جوده ان أباه خلفه فى ابله وهو غلام . فمر به جماعة من الشعراء . فيهم عبيد بن الابرص . وبشر بن أبى حازم . والنابغة الذبيانى . يريدون النعمان بن المندر . فقالوا له هل من قرى ولم يعرفهم . فقال أتسألوني القرى وقد رأيتم الابل والغنم انزلوا فنزلوا فنحر لكل واحد منهم وسألهم عن أسمائهم فأخبروه ففرق فيهم الابل والغنم . وجاء أبوه فقال ما فعلت قال طوقتك مجد الدهر طوق الحمامة وعرفه القضية فقال أبوه اذاً لاأساكنك بعدها أبداً ولا آويك . فقال حاتم اذاً لا أبالى .

ومن حديثه : انه خرج فى الشهر الحرام يطلب حاجة . فلما كان بأرض عنزه ناداه أسير لهم يا أبا سفانة أكلني الاسار والقمل فقال ويحك ما أنا فى بلاد قومى وما معى شيء . وقد أسأت بي اذ نوهت باسمي ومالك مترك . ثم ساوم به العنزيين واشتراه منهم فخلاه وأقام مكانه فى قيده حتى أتى بفدائه فاداه اليهم .

ومن حديثه : اذ ماوية امرأة حاتم حدثت ان الناس أصابتهم

سنة فأذهبت الخف والظلف فبتنا ذات ليلة بأشد الجوع . فأخذ حاتم عديا وأخذت سفانة فعللناهما حتى ناما . ثم أخذ يعللنى بالحديث لأنام فرققت لما به من الجهد فأمسكت عن كلامه لينام ويظن انى نائمة . فقال لى أنمت مراراً فلم أجبه فسكت ونظر من وراء الخباء فاذا شيء قد أقبل فرفع رأسه فاذا امرأة تقول يا أبا سفانة قد أتيتك من عند صبية جياع . فقال احضرينى صبيانك فوالله لأشبعنهم قالت فقمت سريعاً فقلت بماذا يا حاتم فوالله ما نام صبيانك من الجوع الا بالتعليل فقام الى فرسه فذبحه . ثم أجج ناراً ورفع اليها شفرة وقال اشتوى وكلى واطعمى ولدك . وقال لى أيقظى صبيتك فأيقظتهما ثم قال والله ان هذا للؤم ان تأكلوا وأهل الصرم حالهم كحالكم فجعل يأتى الصرم بيتاً بيتاً ويقول عليكم النار فاجتمعوا وأكلوا وتقنع بكسائه وقعد ناحية حتى لم يوجد من الفرس على الارض قليل ولا كثير . ولم يذق منه شيئا . وقد روى هذه القصة الفاضل شهاب الدين فى العقد على غير هذا الوجه فلتراجع . والتى ذكرناها رواية الميدانى فى مجمع الأمثال . وأخبار كرم حاتم كثيرة وشهيرة . ونذكر قضية قراه بعد موته وهى من العجائب .

روى محرز مولى أبى هريرة قال مر نفر من عبد القيس بقبر حاتم فنزلوا قريبا منه فقام اليه رجل يقال له أبو الخيبرى وجعل يركض برجله قبره ويقول أقرنا . فقال له بعضهم ويلك مايدعوك

أن تعرض لرجل قد مات قال ان طيا تزعم انه ما نزل به أحد الاقراه ثم أجنهم الليل فناموا فقام أبو الخيبرى فزعا وهو يقول واراحلتاه . فقالوا له مالك قال أتاني حاتم فى النوم وعقر ناقتى بالسيف وأنا أنظر اليها ثم أنشدنى شعراً حفظته يقول فيه :

أبا الخيبرى وأنت امرؤ ظلوم العشيرة شتامها
أتيت بصحبك تبغي القرى لدى حفرة قدصدت هامها
أتبغى لى الذم عند المبيت وحولك طي وانعامها
فانا لنشبع أضيافنا وتأتي المطى فنعتامها

فقاموا واذا ناقة الرجل تكوس عقيرا فانتحروها وباتوا يأكلون وقالوا قرانا حاتم حيا وميتا واردفوا صاحبهم وانطلقوا سائرين واذا برجل راكب بعيراً ويقود آخر قد لحقه وهو يقول أيكم أبو الخيبرى قال الرجل انا قال فخذ هذا البعير أنا عدى بن حاتم جاءنى حاتم فى النوم، وزعم انه قرا كم بناقتك . وأمرنى أن أحملك فشأنك والبعير ودفعه اليهم وانصرف . والى هذه القضية أشار ابن دارة الغطفانى فى قوله يمدح عدى بن حاتم .

أبوك أبو سفانة الخير لم يزل لدن شب حتى مات فى الخير راغبا
به تضرب الامثال فى الشعر ميتا وكان له اذ ذاك حيا مصاحبا
قرى قبره الاضياف اذ نزلوا به ولم يقر قبر قبله الدهر راكبا

ولحاتم الطائي شعر كثير وهو من البلاغة بمكان والمذكور فى ديوانه بعض منه . ومن شعره يخاطب امرأته ماوية بنت عبدالله

أيا ابنة عبد الله وابنــة مالك

ويا ابنة ذي البردين والفرس الورد

إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له أكيلا فاني لست آكله وحدى

أخاً طارقا أو جار بيت فانني

أخاف مذمات الأحاديث من بعدى

وانى لعبد الضيف مادام ثاوياً وما فى الا تلك من شيمة العبد

عنى بذى البردين عامر بن احيمر بن بهدلة . وكان من حديث البردين حين لقب به أن الوفود اجتمعت عند المنذر بن ماء السماء وهو المنذر بن امرىء القيس وماء السماء . قيل أمه نسب اليها لشرفها . وقيل لقبت بماء السماء لصفاء نسبها ويقال لنقاء لونها . ويراد انها كماء السماء لم يحتمل كدورة . وأخرج المنذر بردين يوما يبلو الوفود . وقال ليقم أعز العرب قبيلة فليأخذها فقام عامر ابن احيمر فأخذها واتزر بأحدها وارتدى بالآخر . فقال له المنذر أأنت أعز العرب قبيلة . قال العز والعدد فى معد . ثم فى نزار . ثم فى مضر . ثم فى خندف ثم فى تميم . ثم فى سعد ثم فى كعب . ثم فى عوف . ثم فى بهدلة . فمن أنكر هذا فلينافرنى فسكت الناس . فقال المنذر هذه عشيرتك كما تزعم فكيف أنت فى أهل بيتك وفى نفسك . فقال أنا أبو عشرة وأخو عشرة وخال عشرة . وعم عشرة وأما أنا فى نفسى فشاهد العز شاهدى . ثم وضع قدمه على الارض فقال من أزالها عن مكانها فله مائة من

الا بل فلم يقم اليه أحد من الحاضرين ففاز بالبردين . ومن شعر حاتم أيضاً قوله :

وعاذلة قامت على تلومني كاني اذا أعطيت مالى أضيمها
أعاذل ان الجود ليس بمهلكى ولا مخلد النفس الشحيحة لؤمها
وتذكر أخلاق الفتى وعظامه مغيبة في اللحد بال رميمها
ومن يبتدع ما ليس من خيم نفسه يدعه ويغلبه على النفس خيمها

ومن ذلك قوله أيضاً :

أكف يدى عن أن ينال التماسها أكف صحابي حين حاجتنا معا
أبيت هضيم الكشح مضطمر الحشا
من الجوع أخشى الذم أن أتضلعا
وانى لاستحيي رفيقي أن يرى مكان يدى من جانب الزاد أقرعا
وانك مهما تعط بطنك سوله وفرجك نالا منتهي الذم أجمعا

وقال أيضاً :

أما والذى لا يعلم السر غيره ويحيى العظام البيض وهى رميم
لقد كنت أختار القرى طاوي الحشا
محافظة من ان يقال لئيم
وانى لاستحى يمينى وبينها وبين فمى داجى الظلام بهيم

وقال أيضاً :

ولما رأيت الناس هرت كلابهم ضربت بسيفى ساق افعى نخرت
وقلت لا صباء صغار ونسوة بشهباء من ليل الثمانين قرت

عليكم من الشطين كل ورية　　اذا النارمست جانبيها أرمعلت
ولا ينزل المرء الكريم عياله　　وأضيافه ما ساق مالا بضرت

وقال أيضاً :

لاتشترى قدرى اذا ماطبختها　　على اذا ما تطبخين حرام
ولكن بهذاك اليفاع فاوقدى　　بجزلى اذا أوقدت لا بضرام

وقال أيضاً :

وقائلة أهلكت بالجود ما لنا　　ونفسك حتى ضر نفسك جودها
فقلت دعينى انما تلك عادتى　　لكل كريم عادة يستعيدها

وهو القائل لغلامه يسار وكان اذا اشتد البرد وكلب الشتاء أمر غلامه فأوقد ناراً فى يفاع من الارض لينظر اليها من أضل الطريق ليلا فيصمد نحوه .

أوقد فان الليل ليل قر　　والريح ياواقد ريح صر
عل يرى نارك من يمر　　ان جلبت ضيفاً فأنت حر

وقال أيضاً :

اماوى قد طال التجنب والهجر　　وقد عذرتنا فى طلابكم العذر
اماوي ان المال غاد ورائح
ويبقى من المال الاحاديث والذكر
اماوى اما مانع فمبين　　واما عطاء لا ينهنهه الزجر
اماوى اني لا أقول لسائل　　اذا جاء يوما حل فى مالى النذر

اماوى لا يغنى الثراء عن الفتى
اذاحشرجت يوما وضاق بها الصدر

اماوى ان يصبح صداي بقفرة من الارض لاماء لدي ولا خمر
ترى انما أنفقت لم يك ضرني وان يدى مما بخلت به صفر
اذا أنا دلانى الذين يلوننى بمظلمة لج جوانبها غبر
وراحوا اسراعا ينفضون اكفهم يقولون قد ادمى أظافرنا الحفر
اماوي ان المال مال بذلته فأوله شكر وآخره ذكر
وقد يعلم الاقوام لو ان حاتما أراد ثراء المال كان له وفر
فانى وجدي رب واحد أمه أخذت فلا قتل عليه ولا أسر
ولاأظلم ابن العم ان كان اخوتي شهوداً وقد أودى باخوته الدهر
غنينا زمانا بالتقصد والغنى وكل سقانا وهو كاسبنا الدهر
فما زادنا مأوى على ذي قرابة غنانا ولا أزرى بأحلامنا الفقر

وله قصيدة طويلة تتعلق بالكرم ومكارم الاخلاق . وهى مسطورة فى الحماسة البصرية وغيرها . وهى هذه :

وعاذلتين هبتا بعد هجعة تلومان متلافا مفيداً ملوما
تلومان لما غور النجم ضلة
فتى لا يرى الانفاق فى الحمد مغرما
فقلت وقد طال العتاب عليهما وأوعدتماني ان تبينا وتصرما
الا لا تلومانى على ما تقدما كفى بصروف الدهر للمرء محكما
فانكما لا مامضى تدركانه ولست على مافاتنى متندما

فنفسك اكرمها فانك ان تهن
عليك فلن تلقى مدى الدهر مكرما
اهن للذى تهوى التلاد فانه   اذا مت كان المال نهباً مقسما
ولا تشقين فيه فيسعد وارث   به حين تغشي اغبر الجوف مظلما
يقسمه غنما ويشرى كرامة
وقد صرت فى خط من الأرض أعظما
قليلا به ما يحمدنك وارث   اذا نال مما كنت تجمع مغنما
تحلم عن الادنين واستبق ودهم   ولن تستطيع الحلم حتى تحلما
وعوراء قد أعرضت عنها فلم تضر   وذي أود قومته فتقوما
واغفر عوراء الكريم ادخاره   واعرض عن شتم اللئيم تكرما
ولا أخذل المولى وان كان خاذلا   ولا أشتم ابن العم ان كان مفحما
ولا زادني عنه مناى تباعدا   وان كان ذا نقص من المال مصرما
وليل بهيم قد تسربلت هوله   اذا الليل بالنكس الدنىء تجهما
ولن يكسب الصعلوك حمداً ولا غنى
اذا هو لم يركب من الأمر معظما
لحا الله صعلوكا مناه وهمه   من العيش أن يلقى لبوساً ومغنما
ينام الضحى حتى اذا نومه استوى
تنبه مثلوج الفؤاد مورما
مقيماً مع المثرين ليس ببارح   اذا نال جدوى من طعام ومجثما

ولله صعلوك يساور همه
ويمضى على الاحداث والدهر مقدما

فتى طلبات لايرى الخمص ترحة ولا شبعة ان نالها عد مغنما
يرى الخمص تعذيباً ولم يلق شبعة يبت قلبه من قلة الهم مبهما
اذا مارأى يوما مكارم أعرضت تيمم كبراهن ثمت صمما
ويغشى اذا ما كان يوم كريهة صدور العوالى فهو مختضب دما
يرى رمحه ونبله ومجنه وذا شطب عضب الضريبة مخذما
واحناء سرج قاتر ولجامه عتاد فتى هيجا وطرفاً مسوما
فذلك ان يهلك فحسنى ثناؤه وان عاش لم يقعد ضعيفاً مذمما

وقد أعرضت عن شرح ما أوردته من شعره فان الغالب منه مشروح فى شواهد كتب العلم . ومنهم :

كعب بن مامة الايادى

وكان ممن يضرب بهم المثل أيضاً فى الجود . ومن حديثه أنه خرج فى ركب فيهم رجل من النمر ابن قاسط فى شهر ناجر فضلوا فتصافنوا ماءهم وهو أن يطرح فى القعب حصاة . ثم يصب فيه من الماء بقدر ما يغمر الحصاة وتلك الحصاة هى المقلة فيشرب كل انسان بقدر واحد فقعدوا للشرب فلما دار القعب فانتهى الى كعب أبصر النمري يحدد النظر اليه فآثره بمائه . وقال للساقى أسق أخاك النمري فشرب النمرى نصيب كعب ذلك اليوم من الماء . ثم

نزلوا من غدهم المنزل الآخر فتصافنوا بقية مائهم فنظر اليه النمرى كنظره أمسه . فقال كعب كقوله أمس وارتحل القوم . وقالوا يا كعب ارتحل فلم تكن به قوة للنهوض . وكانوا قد قربوا من الماء فقيل له رد كعب انك وراد ، فعجز عن الجواب فلما يئسوا منه خيلوا عليه بثوب يمنعه من السبع أن يأكله وتركوه مكانه ففاض . فقال أبوه مامة يرثيه:

ما كان من سوقة أسقى على ظماء حمراً بماء اذا ما جودها بردا
من ابن مامة كعب ثم عي به زو المنيــة الا حرة وقدا
أوفى على الماء كعب ثم قيل له رد كعب انك وراد فما وردا

زو المنية قدرها . وعى به أى عيت الاحداث الا أن تقتله عطشاً . وقال الأصمعى زو المنية ما يحدث من هــلاك المنية . ويقال الزو القدر . ويقال قضى علينا وقدر وحم وزى . وهذا أكثر من كل ما أتى لغيره . وله يقول حبيب :

يجود بالنفس اذ ضن البخيــل بها
والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وله ولحاتم الطائى يقول القائل :

كعب وحاتم اللذان تقسما خطط العلى من طارف وتليد
هذا الذى خلف السحاب ومات ذا
فى الجهد ميتة خضرم صنديد
الا يكن فيها الشهيــد فقومه لا يسمحون به بألف شهيــد

ومنهم :

أوس بن حارثة بن لام الطائى

كان أوس هذا ممن يضرب به المثل فى الكرم والجود يقال له ابن سعدى . قال جرير :

وما كعب ابن مامة وابن سعدى　　بأجود منك يا عمر الجوادا

وكان بشر ابن أبى حازم الاسدى أولا يهجو أوساً وكان أوس نذر لئن ظفر به ليحرقنه فلما تمكن أطلقه وأحسن اليه ، فمدحه بعدة قصائد . وسبب هجاء بشر لاوس . هو ما حكاه أبو العباس المبرد فى الكامل . قال :أوس بن حارثة بن لام الطائي كان سيداً مقدما وفد هو وحاتم بن عبد الله الطائى على عمرو بن هند وأبوه المنذر بن المنذر بن ماء السماء فدعا أوساً فقال له : أأنت أفضل أم حاتم فقال أبيت اللعن لو ملكنى حاتم وولدى ولحمتى لوهبنا فى غداة واحدة ثم دعا حاتما فقال أأنت أفضل أم أوس فقال أبيت اللعن انما ذكرت بأوس ولأحد ولده أفضل منى . وكان النعمان بن المنذر دعا بحلة وعنده وفود العرب من كل حى فقال احضروا فى غد فاني ملبس هذه الحلة أكرمكم فحضر القوم جميعاً الا أوساً فقيل له لم تتخلف فقال ان كان المراد غيرى فاجمل الأشياء ان لا أكون حاضراً وان كنت المراد فسأطلب ويعرف مكانى . فما جلس النعمان لم ير أوساً فقال اذهبوا الي

أوس فقولوا له احضر آمناً مما خفت تخضر . فألبسه الحلة لحسده قوم من أهله . فقالوا للحطيئة أهجه ولك ثلاثمـائة ناقة . فقال الحطيئة كيف أهجو رجلا لا أرى فى بيتى أثاثاً ولا مالا الا من عنده ثم قال :

كيف الهجاء وما تنفك صالحة   من آل لام بظهر الغيب تأتينى

فقال لهم ابن أبي حازم أحد بنى أسد بن خزيمة أنا أهجوه لكم فاخذ الابل وفعل فاغار أوس عليها فا كتسحها . فجعل لا يستجير حياً الا قال قد أجرتك الا من أوس . وكان فى هجائه قد ذكر أمه فأتى به فدخل أوس على أمه فقال قد أتينا ببشر الهاجى لك ولى . قالت أو تطيعنى قال نعم قالت أرى أن ترد عليه ماله وتعفو عنه وتحبوه وافعل مثل ذلك فانه لا يغسل هجائه الا مدحه فخرج فقال ان أمى سعدي التى كنت تهجوها قد أمرت فيك بكذا وكذا فقال لا جرم والله لا مدحت حتى أموت أحداً غيرك ففيه يقول :

الى أوس بن حارثة بن لام   ليقضى حاجتى فيمن قضاها

فما وطىء الثرى مثل ابن سعدى   ولا لبس النعال ولا احتذاها

هذا ما أورده المبرد ولم يذكر كيف تمكن منه أوس . وقد حكاه معمر بن المثنى فى شرحه قال ان بشر ابن أبي حازم غزا طيئاً ثم بنى نبهان فجرح فاثقل جراحه . وهو يومئذ بحمى أحد أصحابه وإنما كان في بني والبة فاسرته بنو نبهان فخبؤه كراهية أن

يبلغ أوساً فسمع أوس انه عندهم فقال والله لا يكون بيني وبينهم خيراً أبداً أو يدفعوه ثم اعطاهم مائتي بعير وأخذه منهم . فجاء به وأوقد له ناراً ليحرقه . وقال بعض بني أسد لم تكن نار ولكنه أدخله في جلد بعير حين سلخه ويقال جلد كبش ثم تركه حتى جف عليه فصار فيه كأنه العصفور . فبلغ ذلك سعدى بنت حصين الطائية وهي سيدة فخرجت اليه فقالت ما تريد أن تصنع فقال أحرق هذا الذي شتمنا فقالت قبح الله قوما يسودونك أو يقتبسون من رأيك . والله لكأنما أخذت به أما تعلم منزلته في قومه خل سبيله وأكرمه فانه لا يغسل عنك ما صنع غيره فحبسه عنده وداوى جرحه وكتمه مايريد أن يصنع به . وقال ابعث الى قومك يفدونك فاني قد اشتريتك بمائتي بعير فأرسل بشر الى قومه فهيئوا له الفدآء وبادرهم أوس فأحسن كسوته وحمله على نجيبه الذي كان يركبه وسار معه حتى اذا بلغ أدنى أرض غطفان جعل بشر يمدح أوساً وأهل بيته بمكان كل قصيدة هجاهم بها قصيدة فهجاهم بخمس ومدحهم بخمس . ومنهم :

هرم بن سنان

وكان من أشهر أجواد زمانه وأرغبهم في الاحسان والمعروف وهو ممن يضرب به المثل في ذلك . وهو صاحب زهير الذي يقول فيه :

متى تلاق على علاته هرما تلق السماحة في خلق وفي خلق

وكان سنان أبو هرم سيد غطفان وماتت أمه وهي حامل به ، وقالت اذا أنا مت فشقوا بطني . فان سيد غطفان فيه فلما ماتت شقوا بطنها فاستخرجوا منه سنانا . وفى بنى سنان يقول زهير:

قوم أبوهم سنان حين تنسبهم
طابوا وطاب من الاولاد ما ولدوا
لو كان يقعد فوق الشمس من كرم
قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا
جن اذا فزعوا أنس اذا أمنوا   مرزؤن بها ليل اذا قصدوا
محسدون على ما كان من نعم   لا ينزع الله منهم ماله حسدوا

وقال زهير فى هرم بن سنان

وأبيض فياض يداه غمامة   على معتفيه ماتغب فواضله
تراه اذا ما جئته متهللا   كانك تعطيه الذى أنت سائله
أخو ثقة لا تتلف الخمر ماله   ولكنه قد يتلف المال نائله

وقال زهير أيضاً فى هرم بن سنان وأهل بيته :

اليك أعملتها فتلا مرافقها   شهرين يجهض من أرحامها العلق
حتى دفعن الى حلو شمائله   كالغيث تنبت فى آثاره الورق
من أهل بيت يرى ذو العرش فضلهم
يبنى لهم فى جنان الخلد مرتفق
المطعمين اذا ما أزمة أزمت   والطيبين ثياباً كلما عرقوا
كأن آخرهم فى الجود أولهم   ان الشمائل والاخلاق تتفق
ان قامروا اقمروا او فاخروا فخروا   او ناضلوا نضلوا او سابقوا سبقوا

تنافس الارض موتاهم اذا دفنوا كما تنفس عند الباعة الورق

قال الميدانى فى مجمع أمثاله عند قولهم أجود من هرم هو هرم ابن سنان ابن أبى حارثه المرى وقد سار بذكر جوده المثل . قال زهير بن أبى سلمى فيه .

ان البخيل ملوم حيث كان ولكن الجواد على علاته هرم
هو الجواد الذى يعطيك نائله عفواً ويظلم أحيانا فيظلم

ووفدت ابنة هرم على عمر . فقال لها ما كان الذى أعطى أبوك زهيرا حتى قابله من المديح بما قد سار فيه . فقالت أعطاه خيلا تنضى . وابلا تتوا . وثيابا تبلى . ومالا يفنى . فقال عمر لكن ما أعطاكم زهير لا يبليه الدهر . ولا يفنيه العصر . ويروى أنها قالت ما أعطى هرم زهيراً قد نسى . قال لكن ما أعطاكم زهير لا ينسى . ومنهم :

عبد الله بن حبيب العنبرى

وكان يضرب به المثل فى الجود . فيقولون اقرى من آكل الخبز وهو أحد بنى سمرة سمى آكل الخبز . لانه كان لا يأكل التمر ولا يرغب فى اللبن وكان سيد بنى العنبر فى زمانه وهم اذا فخروا قالوا منا آكل الخبز . ومنا مجير الطير . فأما مجير الطير . فهو ثور بن شحمة العنبر . وأما السبب فى تلقيبهم عبد الله بن حبيب بآكل الخبز . فلان الخبز نفسه عندهم ممدوح . وذكر أبو

عبيدة أن هوذة بن على الحنفى دخل على كسرى ابرويز . فقال له أى أولادك أحب اليك قال الصغير حتى يكبر والغائب حتى يقدم والمريض حتى يبرأ قال ما غذاؤك ببلدك قال الخبز فقال كسرى هذا عقل الخبز لا عقل اللبن والتمر . فصار الخبز عندهم ممدوحا كما صار ما يناسبه بعض المناسبة ممدوحا وهو الفالوذج . لأنه أشرف طعام وقع اليهم ولم يطعم الناس هذا الطعام أحد من العرب الا عبد الله بن جدعان فمدحه أبو الصلت بذلك فقال .

دع ما يناسبه كل المناسبة   أعنى الثريد وهو فى اشرافهم عام

وغلب عليه هاشم حين هشم الخبز لقومه . فمدح به فى قول الشاعر :

عمرو العلى هشم الثريد لقومه   ورجال مكة مسنتون عجاف

قال حمزة فهذا المثل مع ما يتلوه حكاه عمرو بن بحر الجاحظ فى كتابه الموسوم بكتاب أطعمة العرب . ومنهم :

عبد الله بن جدعان التيمى

وقد كان من مشاهير الأجواد . وممن سارت بجوده الأمثال فى الأقطار والبلاد . وكان يسمى بحاسي الذهب لأنه كان يشرب فى إناء من الذهب . وقالوا فى المثل اقرى من حاسى الذهب . وكان من قريش . وفيه قال أبو الصلت الثقفى :

له داع بمكة مشمعل   وآخر فوق دارته ينادى

الى ردح من الشيزى ملآء　　لباب البر يلبك بالشهاد

الردحة سترة تكون فى مؤخر البيت أو قطعة تراد فيه ، والرداح الخفيفة العظيمة . وروى الجوهرى البيت هكذا الى ردح من الشيزى عليها فقيه عليها بدل ملاء والشيز والشيزى خشب أسود يتخذ منه القصاع . وقوله لباب البر أى من لباب البر . وأخبار عبد الله بن جدعان فى السخاء والكرم كثيرة . وقد ذكر طرفا منها الزبير بن بكار فى كتابه الذى ألفه فى فضائل قريش . ومن خبره انه كان فى ابتداء أمره صعلوكا ترب اليدين . وكان مع ذلك شريرا فاتكا لا يزال يجنى الجنايات فيعقل عنه أبوه وقومه حتى أبغضه عشيرته ونفاه أبوه وحلف لا يؤويه أبداً ، فخرج فى شعاب مكة حائراً نائراً يتمنى الموت أن ينزل به ، فرأى شقاً فى جبل فظن أن فيه حية فتعرض للشق يريد أن يكون فيه مايقتله فيستريح فلم ير شيأ فدخل فيه ، فاذا فيه ثعبان عظيم له عينان تقدان كالسراجين فحمل عليه الثعبان فأفرج له فانساب عنه مستديراً بدارة عند بيت ثم خطا خطوة أخرى فصفر به الثعبان فأقبل اليه كالسهم فأفرج له فانساب عنه فوقف ينظر اليه يفكر فى أمره فوقع فى نفسه انه مصنوع فأمسكه بيديه فاذا هو مصنوع من ذهب وعيناه ياقوتتان فكسره وأخذ عينيه ودخل البيت ، فاذا جثث طوال على سرر لم ير مثلهم طولا وعظما وعند رؤسهم لوح من فضة فيه تاريخهم واذا هم رجال من ملوك جرهم وآخرهم

موتا الحرث بن مضاض صاحب العذبة الطويلة واذا عليهم ثياب من وشى لا يمس منها شيء الا انتثر كالهباء من طول الزمان مكتوب فى اللوح عظات . قال ابن هشام كان اللوح من رخام وكان فيه: انا نفيلة بن عبد المدان بن خشرم بن عبد ياليل بن جرهم ابن قحطان بن نبى الله هود عليه السلام عشت من العمر خمسمائة عام وقطعت غور الأرض ظاهرها وباطنها فى طلب الثروة والمجد والملك فلم يكن ذلك ينجينى من الموت . وتحته مكتوب :

قد قطعت البلاد فى طلب الثر ... وة والمجد قالص الأثواب
وسريت البلاد قفرا لقفر ... بقناة وقوة واكتساب
فأصاب الردى بنات فؤادى ... بسهام من المنايا صياب
فانقضت مدتى واقصر جهلى ... واستراحت عواذلى من عتابى
ودفعت السفاه بالحلم لما ... نزل الشيب فى محل الشباب
صاح هل رأيت أو سمعت براع ... ردفى الضرع ماقرى فى الحلاب

واذا فى وسط البيت كوم عظيم من الياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة والزبرجد فأخذ منه ما أخذ ثم علم على الشق بعلامة ، وأغلق بابه بالحجارة وأرسل الى أبيه بالمال الذى خرج به منه يسترضيه ويستعطفه ووصل عشيرته كلهم فسادهم وجعل ينفق من ذلك الكنز . ويطعم الناس ويفعل المعروف . وفى القاموس وربما كان يحضر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم طعامه . وكانت له جفنة يأكل منها القائم والراكب لعظمها . بل كانت جفنته يأكل

منها الراكب على البعير . وسقط فيها صبي فغرق ومات . وفي غريب الحديث لابن قتيبة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال كنت استظل بظل جفنة عبد الله بن جدعان صكة عمي يعني في الهاجرة وسميت الهاجرة صكة عمي لخبر ذكره أبو حنيفة في الأنوار وهو ان عميا رجل من عدوان . وقيل من اياد . وكان فقيه العرب في الجاهلية فقدم في قومه معتمراً أو حاجاً فلما كان على مرحلتين من مكة قال لقومه وهم في وسط الظهيرة من أتى مكة غدا في مثل هذا الوقت كان له أجر عمرتين فصكوا الابل صكة شديدة حتى اتوا مكة من الغداة وعمي تصغير أعمى على الترخيم فسميت الظهيرة صكة عمي . وعبد الله بن جدعان تيمي يكنى أبا زهير . وهو ابن عم عائشة رضي الله تعالى عنها . ولذلك قالت يارسول الله ان ابن جدعان كان يطعم الطعام ويقرى الضيف ويفعل المعروف فهل ينفعه ذلك يوم القيمة . قال صلى الله تعالى عليه وسلم لا أنه لم يقل يوما رب اغفرلي خطيئتي يوم الدين كذا قاله السهيلي في الروض الانف . وفي كتاب ري العاطش وانس الواحش لاحمد بن عمار ان ابن جدعان ممن حرم الخمر في الجاهلية بعد ان كان بها مغرى . وذلك أنه سكر ليلة فصار يمد يديه ويقبض على ضوء القمر ليأخذه فضحك منه جلساؤه فاخبر بذلك حين صحا فحلف أن لا يشربها أبداً . فلما كبر وهرم أراد بنو تيم أن يمنعوه من تبذير ماله ولاموه في العطاء فكان يدعو الرجل فاذا دنى منه لطمه لطمة خفيفة ثم

يقول له قم فانشد لطمتك واطلب ديتها فاذا فعل ذلك أعطته بنو تيم من مال ابن جدعان . ومنهم :

قياس بن سعد

وهو من أسخياء العرب وأجوادهم المذكورين . قيل له يوما هل رأيت قط اسخى منك . قال نعم نزلنا بالبادية على امرأة فحضرها زوجها فقالت انه نزل بك ضيفان فجاء بناقة فنحرها . وقال شأنكم فلما جاء الغد جاء باخرى ونحرها . وقال شأنكم فقلت ما أكلنا من التى نحرت البارحة الا اليسير . فقال اني لا اطعم أضيافى الغاب فاقمنا عنده أياما والسماء تمطر وهو يفعل كذلك . فلما أردنا الرحيل وضعنا فى بيته مائة دينار . وقلنا للمرأة اعتذري لنا منه ومضينا فلما متع النهار . اذا رجل يصيح خلفنا قفوا أيها الركب اللئام اعطيتمونا ثمن القرى . ثم انه لحقنا وقال لتأخذنها والا طعنتكم برمحى فأخذناها وانصرف . ومنهم :

عبدة الكلبية

وهى امرأة من العرب كانت مذكورة بالسخاء . فقد روى أبو بكر بن دريد بسنده الى أبي عبيدة . قال مر رجل من أهل الشام بامرأة من كلب . فقال هل من لبن يباع فقالت انك للئيم أو قريب عهد بقوم لئام . هل يبيع الرسل كريم . أو يمنعه الا

لئيم . أنا لندع الكوم لاضيافنا تكوس . اذا عكف الدهر الضروس
ونغلى اللحم غريضا . ونهنيه نضيجا . ومنهم :

قتادة بن مسلمة الحنفى

كان هذا أيضا من أسخياء العرب ومشاهيرهم فى الكرم وبه يضرب المثل فى الجود . وكان يسمى غيث الضريك . وقالوا هو اقرى من غيث الضريك . وهو الفقير . ومنهم :

مطاعيم الريح

زعم ابن الاعرابى انهم أربعة أحدهم عم أبى محجن الثقفى . ولم يسم الباقين . قال أبو الندى هم كنانة بن عبد ياليل الثقفى عم أبى محجن . ولبيد بن ربيعة وأبوه كانوا اذا هبت الصبا اطعموا الناس وخصوا الصبا لأنها لاتهب الا فى جدب . قالت بنت لبيد ابن ربيعة العامري :

اذا هبت رياح أبى عقيل ذكرنا عند هبتها الوليدا
اشم الأنف أبيض عبشمياً اعان على مروته لبيدا

وكانت العرب تضرب بهم الأمثال ، لماجبلوا عليه من سخاء الطبع وكريم الخصال . وخلدوا لهم الذكر الجميل . والثناء الجزيل . وهو أحسن ما يدخر . وأجل ما يقتنى ويؤثر . ومنهم :

ازواد الركب

قال ابن بكار فى أنساب قريش كان ازواد الركب من قريش

ثلاثة مسافر بن أبى عمرو ابن أمية بن عبد شمس . الثانى زمعة بن الاسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى . الثالث أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم . وانما قيل لهم أزواد الركب انهم كانوا اذا سافروا لم يتزود معهم أحد ولم يسم بذلك غير هؤلاء الثلاثة . وكان عند أبى أمية بن المغيرة أربع عواتك عاتكة بنت عبد المطلب وهى أم زهير . وعبد الله وهو الذى قال للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . وعاتكة بنت جذل الطعان . وهى أم أم سلمة والمهاجر وعاتكة بنت عتبة بن ربيعة . وعاتكة بنت قيس من بنى نهشل ابن دارم التميمية انتهى . وبهم كانت قريش تضرب المثل . قال الميدانى عند قولهم اقرى من زاد الراكب . زعم ابن الاعرابي ان هذا المثل من امثال قريش ضربوه لثلاثة من اجوادهم وعدد أسمائهم على الوجه السابق . وأخبار هؤلاء كثيرة . وما ورد فيهم من شعر المديح أكثر والمقام لا يسع ذلك . وكان أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم زوج أخته عاتكة بنت عبد المطلب فخرج تاجراً الى الشام فمات بموضع يقال له سرو سحيم فقال أبو طالب عم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هذه الأبيات يرثيه بها وهى :

الا أن زاد الراكب غير مدافع بسرو سحيم غيبته المقابر
بسرو سحيم عارف ومناكر وفارس غارات خطيب وياسر

تنادوا بان لاسيد الحي فيهم وقد فجع الحيان كعب وعامر

فكان اذا يأتي من الشام قافلا بمقدمه تسعى الينا البشائر

فيصبح أهل الله بيضا كانما كستهم حبيراً ريدة ومعافر

ترى داره لا يبرح الدهر عندها

مجعجعة كوم سمان وباقر

اذا أكلت يوما أتى الدهر مثلها

زواهق زهم أو مخاض بها ذر

ضروب بنصل السيف سوق سمانها

اذا عدموا زاداً فانك عاقر

والا يكن لحم غريض فانه تكب على أفواههن الغرائر

فيالك من ناع حبيت بالة شراعية تصفر منها الاظافر

ومن كان يضرب به المثل من أجواد عرب الجاهلية لا يمكننا أن نستوعبهم . ومن وقف على أخبارهم تبين لديه ان كل واحد منهم كان يستحق أن يضرب به المثل

« وأما بعد ظهور الاسلام » فقد تأكد ذلك لديهم ، واستوجبته عليهم نصوص الشريعة فانضم هذا الداعي الى الداعي الطبيعي ، فكان فيهم من اهل القرون الثلاثة من انسى ذكر كعب بن مامة وابن سعدى . قال ابن عبد ربه في العقد الفريد اجواد الحجاز ثلاثة في عصر واحد عبيد الله بن العباس ، وعبد الله بن جعفر ، وسعيد بن العاص ، فمن جود عبيدالله بن العباس

انه أول من فطر جيرانه . وأول من وضع الموائد على الطرق . وأول من حي على طعامه . وأول من أنهبه . وفيه يقول شاعر المدينة .

وفى السنة الشهباء أطعمت حامضاً ... وحلواً ولحماً تامكا وممزعا
وأنت ربيع لليتامى وعصمة ... اذا المحل من جو السماء تطلعا
ابوك ابو الفضل الذى كان رحمة ... وغيثاً ونوراً للخلائق أجمعا

« ومن جوده » انه أتاه رجل وهو بفناء داره فقال يا ابن عباس ان لى عندك يداً وقد احتجت اليها فصعد بصره وصوبه فلم يعرفه . ثم قال ما يدك عندنا قال رأيتك واقفاً بزمزم وغلامك يمتح لك من مائها والشمس قد صهرتك فظللتك بطرف كسائى حتى شربت قال انى لأذكر ذلك وانه يتردد بين خاطرى وفكرى ثم قال لقيمه ما عندك قال مائتا دينار وعشرة آلاف درهم قال ادفعها اليه وما أراها تفى بحق يده عندنا قال له الرجل والله لو لم يكن لاسمعيل ولد غيرك لكان فيه ما كفاه فكيف وقد ولد سيد الأولين والآخرين محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم ثم شفعه بك وبأبيك

« ومن جوده أيضاً » ان معاوية حبس عن الحسين بن على رضي الله تعالى عنهما صلاته حتى ضاقت عليه حاله فقيل لو وجهت

الى ابن عمك عبيد الله فانه قدم بنحو من الف الف درهم فقال الحسين وأين تقع الف الف من عبيد الله فهو والله لهو أجود من الريح اذا عصفت وأسخى من البحر اذا زخر . ثم وجه اليه مع رسوله بكتاب ذكر فيه حبس معاوية عنه صلاته وضيق حاله وانه يحتاج الى مائة الف درهم فلما قرأ عبيد الله كتابه وكان من أرق الناس قلباً . وألينهم عطفاً . انهملت عيناه . ثم قال ويلك يا معاوية مما اجترحت يداك من الاثم حين أصبحت لين المهاد . رفيع العماد . والحسين يشكو ضيق الحال . وكثرة العيال . ثم قال لقهرمانه احمل الى الحسين نصف ما أملكه من فضة وذهب وثوب ودابة . وأخبره انى شاطرته مالى . فان أقنعه ذلك والا فارجع واحمل اليه الشطر الآخر . فقال له القيم فهذه المؤن التى عليك من أين تقوم بها . قال اذا بلغنا ذلك دللتك على أمر تقيم بها حالك . فلما أتى الرسول برسالته الى الحسين قال انا لله حملت والله على ابن عمى . وما حسبته يتسع لنا بهذا كله فأخذ الشطر من ماله وهو أول من فعل ذلك فى الاسلام

« ومن جوده » ان معاوية أهدى اليه وهو عنده بالشام من هدايا النيروز حللا كثيرة ومسكا وآنية من ذهب وفضة ووجهها مع حاجبه فلما وضعها بين يديه نظر الى الحاجب وهو ينظر اليها . فقال هل فى نفسك منها شيء فقال نعم والله ان فى نفسى

منها ما كان فى نفس يعقوب من يوسف عليهما السلام فضحك عبيدالله قال فشأنك بها فهى لك قال جعلت فداك أخاف أن يبلغ ذلك معاوية فيجد على . قال فاختمها بخاتمك وادفعها الى الخازن فاذا حان خروجنا حملها اليك ليلا . فقال الحاجب والله لهذه الحيلة فى الكرم أكثر من الكرم . ولوددت انى لا أموت حتى أراك مكانه يعنى معاوية . فظن عبيد الله انها مكيدة منه . قال دع عنك هذا الكلام فانا قوم نفى بما وعدنا ولا ننقض ما أكدنا

« ومن جوده » انه أتاه سائل وهو لا يعرفه فقال له تصدق فانى نبئت ان عبيد الله بن عباس أعطى سائلا الف درهم واعتذر اليه . فقال له وأين أنا من عبيد الله . قال أين أنت منه فى الحسب أم كثرة المال قال فيهما . قال أما الحسب فى الرجل فمروءته وفعله . واذا شئت فعلت واذا فعلت كنت حسيباً فأعطاه الفي درهم واعتذر اليه من ضيق الحال فقال له السائل ان لم تكن عبيد الله ابن عباس فأنت خير منه وان كنت هو فأنت اليوم خير منك أمس فأعطاه ألفاً أخرى . فقال السائل هذه هزة كريم حسيب والله لقد نقرت حبة قلبى فأفرغتها فى قلبك فما أخطأت الا باعتراض الشك من جوانحى

« ومن جوده أيضاً » انه جاءه رجل من الأنصار فقال يا ابن عم رسول الله انه ولد لى فى هذه الليلة مولود وانى سميته باسمك

تبركا مني به وان أمه ماتت . فقال عبيد الله بارك الله لك في الهبة. وأجزل لك الأجر على المصيبة . ثم دعا بوكيله وقال انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضنه وادفع اليه مائتي دينار للنفقة على تربيته ثم قال للانصاري عد الينا بعد أيام فانك جئتنا وفي العيش يبس وفي المال قلة . قال الانصاري لو سبقت حاتماً بيوم واحد ما ذكرته العرب أبداً . ولكنه سبقك فصرت له تالياً . وأنا أشهد ان عفوك أكثر من مجهوده . وطل كرمك أكثر من وابله. انتهى ما في العقد من حديث عبيد الله

وروى ابو فرج الاصبهاني في الاغاني بسنده . قال مر عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب بمعن بن اوس المزني وقد كف بصره فقال له يا معن كيف حالك فقال ضعف بصري وكثر عيالي وغلبني الدين . قال وكم دينك قال عشرة آلاف درهم فبعث بها اليه . ثم مر به من الغد فقال كيف أصبحت يا معن قال

أخذت بعين المال حتى نهكته وبالدين حتى ما أكاد أدان
وحتى سألت القرض عند ذوي الغنى
ورد فلان حاجتي وفلان

فقال له عبيد الله الله المستعان انا بعثنا اليك لقمة فما لكتها حتى انتزعت من يديك فأي شيء للأهل والقرابة والجيران وبعث اليه بعشرة آلاف درهم أخرى فقال معن يمدحه

انك فرع من قريش وانما · يمج الندى منها البحور الفوارع
ثووا قادة للناس بطحاء مكة · لهم فى سقايات الحجيج الدوافع
فلما دعوا للموت لم تبك منهم · على حادث الدهر العيون الدوامع

ثم ان ابن عبد ربه ذكر نبذة من أخبار جود عبد الله بن جعفر . وجود سعيد بن العاص . وجود عبيد الله بن أبى بكرة . وجود عبيد الله بن معمر القرشى التيمى . وذكر جود جماعة كثيرة من أهل الطبقة الثانية من الأجواد وأتى من ذلك بما يستغرب ويوجب العجب ولا بدع فان لهم أسوة بسيدهم بل سيد ولد عدنان وقحطان ونور حدقة عالم الامكان . صلى الله تعالى عليه وسلم فانه قد منح . من السخاء والجود . ما فاق به حتى جاد بكل موجود . وآثر بكل مطلوب ومحبوب . ومات ودرعه مرهونة عند يهودى على اصع من شعير لطعام أهله . وقد ملك جزيرة العرب . وكان فيها ملوك واقيال . لهم خزائن وأموال . يقتنونها ذخرا . ويتباهون بها فخرا . ويستمتعون بها اشراً وبطرا . وقد حاز ملك جميعهم . فما اقتنى ديناراً ولا درهما . لا يأكل الا الخشب . ولا يلبس الا الخشن . ويعطى الجزل الخطير . ويصل الجم الغفير . ويتجرع مرارة الاقلال ويصبر على سغب الاختلال . وقد حاز غنائم هوازن . وهى من السبى ستة آلاف رأس . ومن الابل أربعة وعشرون ألف بعير ومن الغنم أربعون الف شاة . ومن الفضة أربعة آلاف أوقية . فجاد بجميع حقه وعاد خلوا .

روى ابو وائل عن مسروق عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت ماترك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ديناراً ولا درهما ولا شاة ولا بعيراً ولا أوصى بشىء .

وروى عمرو بن مرة عن سويد بن الحارث عن أبى ذر قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما يسرنى ان لى أحداً ذهباً أنفقه فى سبيل الله أموت يوم أموت وعندى منه دينار الا أن أعده لغريم . وكان صلى الله تعالى عليه وسلم اذا سئل وهو معدم وعد ولم يرد وانتظر ما يفتح الله . روى حماد بن زيد عن المعلى بن زياد عن الحسن ان رجلا جاء الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يسأله فقال اجلس سيرزقك الله ثم جاء آخر ثم آخر فقال لهم اجلسوا فجاء رجل بأربع أواقى فأعطاه اياها وقال يا رسول الله هذه صدقة فدعا الأول فأعطاه أوقية . ثم دعا الثانى فأعطاه أوقية . ثم دعا الثالث فأعطاه أوقية . وبقيت معه أوقية واحدة فعرض بها للقوم فما قام أحد فلما كان الليل وضعها تحت رأسه وفراشه عباؤه فجعل لا يأخذه النوم فيرجع فيصلى فقالت له عائشة يا رسول الله حل بك شىء قال لا قالت فجاءك أمر من الله قال لا قالت انك صنعت منذ الليلة شيئاً لم تكن تفعله فأخرجها وقال هذه التى فعلت بى ما ترين انى خشيت أن يحدث أمر من الله ولم أمضها .

وروى الزهرى عن ابى سلمة عن ابى هريرة عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم انه قال أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن ترك ديناً فعلى ومن ترك مالا فلورثته . فهل مثل هذا الكرم والجود كرماً وجودا . أم هل لمثل هذا الاعراض والزهادة اعراضاً وزهدا . هيهات هيهات هل يدرك شأو من هذه شذور من فضائله . ويسير من محاسنه . وهى التى لا يحصى لها عدد . ولا يدرك لها أمد . وحقيق لمن بلغ من الفضائل غايتها . واستكمل لغايات الأمور آلتها . أن يكون لزعامة العالم مؤهلا . وللقيام بمصالح الخلق موكلا .

تم

بلاغة العرب

في القرن العشرين

وهو شذرات وأشعار، مختارة من أقلام رسل البلاغة العربية في أميركا

كجبران ، والريحاني ، ونعيمه ،
وابو ماضي ، وفرحات ،
وعريضه ، ومشرق ،
وكاتسفليس ، والخوري ،
وايوب، والحاج، وسليمه، و...

الطبعة الثانية

منقحة ومكبرة ومزدانة بصور الأدباء

١٠ الثمن عشرة قروش صاغ ١٠

يطلب من — المكتبة الأهلية — بشارع عبد العزيز بمصر

